صور

تتأصل المدنية بالوعي

السنة الثانية / العدد ٢٨ / شباط / ٢٠١٦

نبيل الملحم: لا بد من إزالة هذا النظام على أن لا ترثه هذه المعارضة

حركة أحرار الشام الإسلامية بين الجهادية والإخوانية

سوق الأوراق المالية في سوريا والهدف المرسوم له

عدسة: مالك رجب - حمص

الفهرس

ملف .... ص ٤
قراءات في الحركة الإسلامية في الحرب السورية

- قراءةٌ في ظاهرة «أسلمة» الثورة السوريّة
- حركة أحرار الشام الإسلاميّة.. بين الجهاديّة والإخوانيّة

رأي .... ص ١٧

- لوحاتٌ أصليّةٌ في حضارةٍ مزيّفة
- المجتمع الديناميتيّ الحيّ

الحوار .... ص ٢٠
مجلة صوَر تحاور الروائيّ السوريّ نبيل الملحم

إيقاع العدسة .... ص ٢٤

تحقيق .... ص ٢٦

- الاختفاء القسريّ في إدلب
وسيلةٌ للانتقام من الأهالي وجمع الأموال
- أطفال سوريا بين قتلٍ ودمارٍ.. ونزوحٍ قاتل

نافذة على الحقوق .... ص ٣٠
المحاسبة أساسيّةٌ لمكافحة ثقافة الإفلات من العقاب

اقتصاد وتنمية .... ص ٣٢
سوق الأوراق الماليّة في سوريا والهدف المرسوم له

الديك .... ص ٣٥
لهذا.. ورثنا أبو بكر البغدادي

ثقافة .... ص ٣٦
نساءٌ في الهوّة الفاغرة بين الحبّ والموت
قراءةٌ في رواية «ألف شمسٍ ساطعة» لخالد الحسيني

بورتريه .... ص ٣٨
الشاعر بشير العاني
حوذيّ الجهات.. يمتطي الغياب إلى جهة النهر!

سينما .... ص ٣٩
فيلم حلم الفراشة

منظمات ومشاريع ومبادرات .... ص ٤٠

ساخرة .... ص ٤٢
أنا آسف أستاذ

صوَر
تتأصل المدنية بالوعي

صادرة عن مركز المجتمع المدني والديمقراطية في سوريا | CCSDS

للتواصل وإرسال المساهمات والمقترحات
Email: info@suwar-magazine.org
Facebook: suwar-magazine
website: www.suwar-magazine.org

المقالات المذيلة بأسماء أصحابها تعبر عن آرائهم ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة أو فريق التحرير

وهم «الانتخابات» أم سراب «الحلّ السياسيّ»؟

في خطوةٍ استفزازيةٍ أعلن النظام السوريّ الثالث عشر من نيسان موعداً لإجراء انتخاباتٍ برلمانية، وذلك لخلط الأوراق والإيحاء بأنه ما يزال مسيطراً. وهو ما يراه البعض تحدّياً جديداً من قبل النظام لسير المفاوضات بهدف عرقلتها، ومحاولةً واضحةً للهروب من استحقاقات العملية التفاوضية الجارية في جنيف.

وبغضّ النظر عن المواقف الدولية والإقليمية، ومواقف أطراف المعارضة، من هذه الانتخابات ومدى شرعية إعلانها؛ يحقّ لنا أن نتساءل: كيف يمكن إجراء انتخاباتٍ في دولةٍ أكثر من نصف مساحتها خارج سيطرة النظام، وتتقاسمها العديد من الجهات والتنظيمات والفصائل؟ فضلاً عن عودةٍ القتال بين قوّات المعارضة والنظام، بعد هدنةٍ هشّةٍ فشل المجتمع الدوليّ في ضمان فرضها واستمرارها؟

يأتي كلّ هذا في مرحلةٍ حسّاسةٍ تمرّ بها سوريا، فمصير البلاد على كفّ عفريت، ومفاوضات جنيف شبه معطّلة، بسبب تعنّت وتصلّب المواقف بين طرفي المحادثات الرئيسيَّين، والفجوة الكبيرة في رؤية الطرفين للعملية السياسية، المرتبطة بجملةٍ من القضايا الخلافية المتمثلة في مصير الأسد في مستقبل البلاد، واختلاف رؤية كلٍّ من النظام والمعارضة للمرحلة الانتقالية، بين من يرى -من المعارضة- أنها يجب أن تكون بحكومةٍ انتقاليةٍ بكامل الصلاحيات دون وجود الأسد، وبين رؤية النظام الذي يريد حكومة وحدةٍ وطنية، ويعتبر مناقشة مصير الأسد خطّاً أحمر.

لن يؤدي الإعلان عن موعد الانتخابات سوى إلى خلق حالةٍ من الفوضى، وضرب فسحة الأمل التي خلقتها مباحثات جنيف لدى الشعب السوريّ حول قرب التوصّل إلى حلٍّ للأزمة التي أرهقت الجميع. وعلى المجتمع الدوليّ، إن كان جادّاً في إيجاد حلٍّ في سوريا، أن يعمل على إبطال أيّ شرعيةٍ لهذه المهزلة، وإلزام النظام بالتعامل بجدّيةٍ مع متطلبات المفاوضات والحلّ السياسيّ.

إلا أن التعويل على المجتمع الدوليّ وحده غير كافٍ، فالعمل للتوصّل إلى حلولٍ للأزمة السورية هو من شأن السوريين قبل غيرهم، ولذلك فإن على مختلف القوى السياسية والمدنية في سوريا أن تقوم بواجبها لقطع الطريق على مختلف المحاولات الرامية للالتفاف على المفاوضات. ولعلّ الواجب الأساسيّ لهذه القوى هو العمل بشكلٍ جدّيٍّ على تثبيت الهدنة على الأرض، والضغط على مختلف الأطراف المسلحة لوقف انتهاكاتها المتكرّرة، وطبعاً مقاطعة مهزلة «الانتخابات» والعمل على فضحها وعزلها على الصعيدين المحليّ والدوليّ.

قراءات في الحركة الإسلامية في الحرب السورية

يُنشر هذا الملف بالتعاون بين مجلة صور ومركز دراسات الجمهورية الديمقراطية

قراءةٌ في ظاهرة «أسلمة» الثورة السوريّة

طارق عزيزة

حركة أحرار الشام الإسلاميّة.. بين الجهاديّة والإخوانيّة

راتب شعبو

قراءةٌ في ظاهرة «أسلمة» الثورة السوريّة

طارق عزيزة

تزامنت الذكرى الخامسة لانطلاق الثورة السورية مع «هدنة» نجحت نسبياً في خفض منسوب العنف في البلاد، فكانت فرصةً لعودة المظاهرات السلميّة، واستعادة مشاهد الأشهر الأولى من الثورة، حين كان الحراك المدنيّ السلميّ سمتها الرئيسية، قبل تصاعد العنف، واستفحال الصراع المسلّح، وطغيان الجماعات ذات المشاريع «الإسلامية» على من عداها من الفئات التي تواجه نظام الاستبداد. وكان لافتاً، في سياق عودة التظاهرات إلى صدارة المشهد، إعادة الاعتبار إلى علم الاستقلال، علم الثورة، وشعارات الثورة الأولى، على حساب الرايات «الإسلامية» المختلفة، ووقوع مصادماتٍ بين المتظاهرين وبين سلطات الأمر الواقع الإسلامية في بعض المناطق الخاضعة لسيطرتها، وصولاً إلى قيام السكّان بإجبار «المجاهدين» على الانسحاب من مقرّاتهم، كما في معرّة النعمان (١٤ آذار/ مارس ٢٠١٦). وهذا تعبيرٌ واضحٌ عن رفض السوريين عموماً لأجندات جماعات الجهاد وممارساتها، وقد عبّروا عنه ما أن أُتيحت لهم الفرصة.

يعيد هذا إلى الواجهة مسألة «أسلمة الثورة»، **وضرورة فهمها وتحليلها، بوصفها ظاهرةً طارئة، جاءت نتيجة أسبابٍ وظروفٍ محدّدة**، وهو ما تنشغل به هذا الدراسة، إذ تبحثُ في مسار «أسلمة الثورة»، وتناقش الظروف العامّة وحيثيات نشوء الظاهرة وانتشارها، الذي ترافق مع انزياح الثورة نحو «العسكرة»، عبر تضافر أدوار النظام والمعارضة وبعض الجهات الخارجية الداعمة لكلٍّ منهما، وصعود نجم «السلفية الجهادية» خلال سنوات الثورة. ومن خلال العرض والتحليل يجري رصد جدلية العلاقة بين المجموعات الإسلامية المقاتلة وبين «المعارضة السياسية السورية»، دون الخوض في موضوع الجماعات المرتبطة بالجهاد العالميّ، إلا ما كان منه متّصلاً بضرورات الدراسة.

مقدّمات ظاهرة «أسلمة الثورة»

من المفارقات التي سجّلَتها مجريات الثورة السوريّة وتحوّلاتها أنّ ما قدّمه إعلام نظام الأسد في محاولاته لتبرير «الحلّ الأمنيّ»، وروايته الرسمية منذ خروج أولى المظاهرات السلمية المطالبة بالتغيير، عن «الإمارات السلفيّة» و«الفتنة الطائفيّة»، وجد على أرض الواقع معطيات تنسجم مع مضمونه، ولذلك أسبابه المتشعّبة الداخليّة والخارجيّة، تتعلّق ببنية النظام وممارساته، أو بتركيبة المعارضة وارتباطاتها. ذلك أنّ فئاتٍ من المعارضة، وداعميها، انجرّوا بالفعل نحو تبنّي خطابٍ دينيٍّ/ مذهبيٍّ، ألقى بظلاله باكراً على بعض أوساط الشارع المنتفض. كان لذلك أثره العميق في عزوف شرائح واسعة من الرأي العام، داخل سوريا وخارجها، عن تأييد الثورة الشعبية، بل ومعارضتها، بعد أن كان التعاطف معها قد بلغ أوج مستوياته. فالمشهد الدينيّ في سوريا بالغ التعقيد، نظراً لشدّة التنوّع المذهبيّ والطائفيّ والإثنيّ، واشتغال النظام على الحساسيات والتناقضات المجتمعية بما يخدم تأبيد حكمه على حساب تذرير المجتمع، فلم يكن من الصعب إشعال فتيل الشقاق الطائفيّ.

من جهته، أدّى الضخّ السلفيّ الدعويّ الخليجيّ الكثيف ضدّ الشيعة عموماً، والذي فسّر التحالف الاستراتيجيّ العسكريّ والتقنيّ والسياسيّ، السوريّ-الإيرانيّ، حول الصراع مع إسرائيل، بمفردات التحالف الفئويّ الطائفيّ الضيّقة، إلى خلق وعيٍ زائفٍ أو مقلوب، ظهر في شكلٍ محدّد، في صورة وعيٍ مشحونٍ طائفيّاً[1]. وجد ذلك صداه في الطرف المقابل، خصوصاً وأنّ الانشطار السنّيّ-الشيعيّ جعل من الطائفيّة «عاملاً ثابتاً في التاريخ الإسلاميّ»، وإن خمدت جذوتها أو اتّقدت تبعاً لموازين القوى، وفق تعبير الراحل جورج طرابيشي[2].

من الحالات المبكّرة الدالّة على سعي بعضهم إلى تطييف الحراك الشعبيّ ومذهبته، والتي وقعت بعد عشرة أيام فقط من خروج أوّل مظاهرة في دمشق، وأسبوع من انطلاق مظاهرات درعا، خطبة الجمعة (٢٥ آذار/مارس ٢٠١١) للشيخ يوسف القرضاوي، المحسوب على «الإخوان المسلمين»، ويترأس «الاتّحاد العالميّ لعلماء المسلمين».

١- محمد جمال باروت، العقد الأخير في تاريخ سوريا، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، الطبعة الأولى، آذار ٢٠١٢. ص ١٩٤.

٢- للمزيد عن تاريخ «الانقسام السني-الشيعي» راجع: جورج طرابيشي، هرطقات٢، دار الساقي، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨.

حملت خطبة القرضاوي تلك رموزاً طائفيّة، فانتقد الأسد والطائفة العلوية، وقال إنّه «أسير طائفته»، وإنّ «الشعب السوريّ يعامله على أنه سنّيّ»، ما أسهم في زيادة حدّة الاستقطاب الذي بدأ يظهر آنذاك، إذ أذكى خطابه نوعاً من الانحياز والتهجّم اللفظيّ على الأقلية العلوية التي ينتمي إليها الأسد، وقد أنتج هذا الخطاب تفاعلاً ولغطاً تقسيمياً جرى تداوله ضمن الرأي العام، خصوصاً في ظلّ الرواية الرسمية للنظام عن الفتنة الطائفية[٣].

ومن الأمثلة المبكرة أحاديث الشيخ السلفيّ عدنان العرعور، الذي صدّر خطاباً شعبوياً طائفياً منذ نيسان/أبريل (٢٠١١)، وتميّز بفتاويه الانفعالية، الطائفية، فلم تخلُ حلقةٌ من برنامجه على قناة «صفا» الفضائية من حديثٍ عن «العلوية» و«السنّة» و«الشيعة»، إضافةً إلى دعواته إلى الجهاد. اكتسب العرعور حينها متابعةً كبيرةً في الأوساط الشعبية المحتجّة، لاسيما في حمص ودرعا وإدلب وحماة ودير الزور، ورفعت شعارات المحتجّين في كثيرٍ من الأوقات لافتات تؤيّده وتحبّذ خطابه، وهو ما يمكّن من قياس مدى تأثيره في الرأي العامّ من جهة، والانحراف في مسار الثورة ومطالبها من شعاراتٍ جامعة تحت مسمّيات الحرية والديمقراطية إلى مسمّياتٍ شعاريّةٍ لخّصت -في جزءٍ منها- نزوعاً نحو الطائفية والانتقاميّة والكراهية، من جهةٍ ثانية[٤].

الأهمّ من كلّ ما سبق هو التسميات التي أُطلقت على العديد من أيّام الجمع وتحمل دلالاتٍ دينيّةً صريحة، بما لذلك من تأثيرٍ في توجيه الرأي العامّ ومساراته، إذ كان يوم الجمعة هو الموعد الرئيس للمظاهرات، وكلّ تسميةٍ تحمل رسائل سياسيةً وأيديولوجيةً للداخل والخارج. أما المسؤول عن التسميات فكان صفحة «الثورة السورية ضد بشار الأسد» على الفيسبوك، والتي يشرف عليها أحد أبناء «الإخوان المسلمين» في المنفى.

٣- حمزة مصطفى المصطفى، المجال العام الافتراضي في الثورة السورية، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، الطبعة الأولى، نيسان ٢٠١٢، ص ٩٣

٤- المصدر نفسه، ص ١٠٠ - ١٠٢. وقد لبّت شرائح واسعةٌ من المحتجّين دعوات العرعور بالتكبير (الله أكبر) ليلاً من على أسطح وشرفات المنازل. وهذا، حتى وإن كان نوعاً من «النكاية» بالنظام من خلال «التظاهر في المنازل»، وبالتالي لا يعني بالضرورة تبنّي هؤلاء الخطاب الدينيّ؛ لكنّه يعدّ مؤشّراً على اتساع نطاق متابعي العرعور في ذلك الحين

من أمثلة التسميات تلك، والثورة لم تكن قد أتمّت بعد عامها الأول: «أحفاد خالد» (٢٠١١/٧/٢٢)؛ «الله معنا» (٢٠١١/٨/٥)؛ «لن نركع إلا لله» (٢٠١١/٨/١٢)؛ «الله أكبر» (٢٠١١/١١/٤)؛ «إن تنصروا الله ينصركم» (٢٠١٢/١/٦). وصولاً إلى الجدل الذي أثارته صفحة «الثورة السورية» بعزمها على تسمية يوم الجمعة (٢٠١٢/١/٢٧) بـ«إعلان الجهاد»، وأمام انتقادات ناشطي الحراك السلميّ اضطرّ مسؤولو الصفحة إلى التراجع. غير أنّ التسمية البديلة التي اعتمدوها لتلك الجمعة «حق الدفاع عن النفس» بدت محاولةً لتمرير مضمون الرسالة التي تحملها تسمية «إعلان الجهاد»، لا سيما وأنّها جاءت على حساب تسمية «جمعة الدولة المدنية» التي لاقت دعماً واسعاً، وتبنّاها ورفعها عددٌ كبيرٌ من المتظاهرين.

مجمل تلك المعطيات، إضافةً إلى تعمّد إعلام النظام وحلفائه، وإعلام المعارضة وبعض داعميها، إبراز الخطاب الدينيّ الذي أنتجها/ ونتج عنها[٥]، ساهمت في تأجيج خطابٍ مذهبيٍّ وشحنٍ طائفيٍّ متبادل. أدّى ذلك، معطوفاً على القمع الوحشيّ الذي مارسه النظام، إلى تهيئة الأجواء للانزلاق نحو عنفٍ طائفيٍّ شهدته بعض المناطق، ثمّ ليكتسي الصراع لاحقاً، وبشكل أكبر، بعداً دينيّاً/ جهاديّاً، وهو ما لم يكن على الإطلاق خارج حسابات مركز صنع القرار في سلطة الأسد، إذ جرى إطلاق سراح أعدادٍ كبيرةٍ من المعتقلين الإسلاميين، ممن يحملون «الفكر الجهاديّ»، وسبق للكثيرين منهم المشاركة في «الجهاد العراقيّ» وسواه. واستطاع هؤلاء خلال زمنٍ قياسيٍّ تشكيل مجموعاتٍ جهاديةٍ متعدّدة، تتمايز عن بعضها بالدرجة لا بالنوع. وهي، وإن كانت علاقاتها البينية لا تخلو من التنافس والصراعات، لكنها كثيراً ما استطاعت تنحية خلافاتها جانباً، لتفرض نفسها بقوّةٍ على حساب «الجيش السوريّ الحرّ»، في معظم المناطق الخارجة عن سيطرة النظام.

جدلية «العسكرة» و«الأسلمة»

منذ الأشهر الأولى للمظاهرات، وكردّ فعلٍ على القمع الوحشيّ الذي مارسه النظام لإخمادها، ومع تصاعد الحملات الأمنية على الأحياء

٥- كان لافتاً، بعد انقضاء «جمعة الصمود» ٢٠١١/٤/٨، وسقوط قتلى فيها، أنّ الشعارات بدأت تأخذ طابعاً مصبوغاً بشعاراتٍ وخطبٍ دينيّة، تبارك التضحيات وتستعدّ للشهادة، ويلبس فيها بعض المتظاهرين الأكفان، بما يشكّل -تحليلياً- ملامح رمزيّةً لتكوّن بيئةٍ أوليّةٍ قابلةٍ -في ظلّ شروطٍ معيّنة- للتجييش والتعبئة «جهاديّاً». العقد الأخير في تاريخ سوريا، ص ٢٢٨

والمناطق المنتفضة، بدأت تظهر بعض حالات حمل السلاح، ضمن إطار الدفاع عن النفس أمام بطش الأجهزة الأمنية. فطغت سمات العفويّة والارتجال على المظاهر المسلّحة الأولى في الثورة، وكذلك على حالات الانشقاق الأولى عن الجيش، والتي شكّلت النويات الأولى لما أصبح «الجيش السوري الحرّ». فكان ذلك أقرب إلى «ردّ الفعل» على عنف النظام منه إلى المبادرة المنظّمة والفاعليّة الحقيقيّة.

حمل الشكل العفويّ من التسلح، في بداياته، طابعاً تقليديّاً يعكس واقع البنى الاجتماعية العشائرية والتقليدية التي انطلق منها في مناطق مختلفة، كبعض أحياء حمص، وقرىً في الغوطة الشرقية بريف دمشق. ترافق ذلك مع تزايد عمليات انشقاق الضباط والمجندين. لم تعترف المعارضة علناً بوجود حالةٍ من التسلّح واجهت العمليات الأمنية في الأشهر الأولى، لكن بعد أن أعلن عددٌ من العسكريّين تشكيل «لواء الضباط الأحرار» (٩ حزيران/يونيو ٢٠١١)، ثمّ تأسيس «الجيش السوريّ الحرّ» (٢٩ تموز/يوليو ٢٠١١)، قام نشطاء المعارضة على الإنترنت، وهيئاتها التنظيمية، بتبنّيه وتضخيمه وتشجيعه، وقدّموا خطاباً إعلاميّاً حاول أن يحاكي التجربتين الليبية واليمنية بتضخيم ظاهرة الانشقاقات، وإجمال كلّ الأعمال المسلحة التي تواجه النظام تحت لوائها. وعملت وسائل الإعلام العربية، وخاصة الجزيرة والعربية، على تضخيم قضيّة المنشقّين إعلاميّاً، وهو ما أدّى إلى بروز حالةٍ من «العسكرة»، لم تستطع هذه الوسائل إنكارها في ما بعد[٦].

إنّ عمليّة عسكرةٍ إعلاميّةٍ للثورة، مقصودةٍ وممنهجة، سبقت ظهور «المعارضة المسلّحة» والمواجهات الفعليّة مع قوّات النظام. ذلك أنّه، بعيداً عن ردود الفعل ومظاهر التسلّح البسيطة والصدامات على هامش المظاهرات في بعض الأحياء والمناطق، فإنّ أوّل سلوكٍ واضح تعلن «المعارضة المسلّحة» من خلاله شروعها في المواجهة العسكريةً المفتوحة مع قوّات الجيش والأمن كان يوم (١٥ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠١١)، بالهجوم على مقرٍّ للمخابرات الجوّية في حرستا بريف دمشق، ما عنى البدء فعليّاً في العمل لإسقاط النظام عسكريّاً. وهو ما تلقّفته أطرافٌ عربيّةٌ وإقليميّةٌ ودوليّة، لم تخفِ دعمها لهذا النهج، خصوصاً مع تبنّيه من أوساطٍ معارضةٍ في الخارج وتوفيرها التغطية السياسيّة له، وتعليق آمالها عليه.

وبخلاف «الجيش الحرّ» والمجموعات المسلحة الأهلية التي ظهرت

٦- المصطفى، مصدر سبق ذكره، ص ١٣٧- ١٤١

بكثرة، كان هناك مشهدٌ ثالثٌ ينمو بسرّيةٍ وكتمانٍ شديدين، بالتوازي مع المشهدين السلميّ والعسكريّ للثورة، هو مشهد الجماعات المقاتلة ذات المحتوى العقديّ الصارم والصريح، وهو ما يمكن التعبير عنه بمشهد «الثورة الجهادية». مشهد ثورةٍ لا يخفى عليها ذاك الرصيد التاريخيّ، فكراً وعقيدةً وعملاً وأهدافاً، ولا خبراته أو خبرات وقائع تيارات «الجهاد العالميّ» التي تجوب اليوم ساحات العالم الإسلاميّ[٧].

مع تصاعد عمليات «المعارضة المسلّحة» وانتشار أخبارها في الإعلام، المنتمية منها إلى «الجيش السوريّ الحرّ» أو غيرها، بدأت تظهر الملامح «الجهادية». إذ حملت معظم الكتائب والألوية أسماء إسلامية، وامتلأت بياناتها وتسجيلاتها المصوّرة، المنتشرة بكثرةٍ على الإنترنت، بالعبارات الدينيّة والجهاديّة. كما ظهرت مجموعاتٌ جهاديةٌ صريحة، تقاتل بهدف إقامة «دولةٍ إسلاميّة» بالفعل وليس وفقاً لاتّهامات النظام وآلته الدعائية. فتنظيم «القاعدة»، ممثلاً بـ«جبهة النصرة لأهل الشام»، ظهر في سوريا رسمياً في (٢٤ كانون الثاني/يناير ٢٠١٢)، قبل إتمام الثورة عامها الأوّل. وبعد أشهرٍ أعلنت «جبهة النصرة» ومجموعاتٌ إسلاميةٌ منتشرةٌ شماليّ البلاد، أبرزها «حركة أحرار الشام»، التوافق على «تأسيس دولةٍ إسلاميةٍ عادلة» (١٩ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠١٢)[٨]، ردّاً على تشكيل «الائتلاف الوطنيّ لقوى الثورة والمعارضة».

استقطبت التنظيمات الجهادية أعداداً متزايدةً من المقاتلين الأجانب، من جنسياتٍ عربيّةٍ وغيرها، «للجهاد» في سوريا. ولم تقتصر مشاركة «المجاهدين» غير السوريين على القتال إلى جانب المعارضة، فقد أرسل «حزب الله» اللبنانيّ، الحليف للنظام، «مجاهديه» إلى سوريا للقتال ضدّ المعارضة (تبعته ميليشياتٌ شيعيةٌ إيرانيةٌ وعراقيةٌ وأفغانية). وبرز دور «حزب الله» بشكلٍ أكبر بعد استعادته السيطرة على مدينة القصير الحدوديّة بريف حمص من مقاتلي المعارضة (أيار/مايو ٢٠١٣)، ليتبعَ ذلك إعلان عددٍ من رجال الدين الإسلاميّ الداعمين للمعارضة، في بيانٍ رسميٍّ، «وجوب الجهاد» واعتبار ما يجري في سوريا «حرباً على الإسلام»، في مؤتمرٍ عُقد لهذه الغاية في القاهرة (١٣ حزيران/

٧- أكرم حجازي، «الجيش الحر جبهة النصرة كتائب أحرار الشام خريطة القوى المسلحة»، شبكة فلسطين للحوار

٨- تمكن مشاهدة تسجيل مصوّرٍ للإعلان على الرابط
http://www.youtube.com/watch?v=v151Fh6q_qM

يونيو ٢٠١٣) تحت عنوان «موقف علماء الأمة من القضية السورية». وحينها قدّم الداعية الإسلاميّ الشهير محمد حسّان للبيان بالقول: «إنّ المعادلة تغيّرت بنزول الروافض إلى أرض الشام»[٩].

المعارضة السورية و«أسلمة الثورة»

اتّسم موقف المعارضة السوريّة، وتحديداً الممثلة في «المجلس الوطنيّ»، ثم «الائتلاف الوطنيّ لقوى الثورة والمعارضة»، اللذين اعتمدتهما تباعاً بعض القوى الإقليميّة والدولية بصفة «الممثل الشرعيّ للشعب السوريّ»، حيال ظاهرة «أسلمة الثورة» بالالتباس والتذبذب. يتأكد ذلك في موقفها من أكثف رموز الظاهرة، أي الفرع السوريّ للقاعدة: «جبهة النصرة لأهل الشام»، بزعامة أبي محمد الجولاني.

تراوح الموقف الرسميّ من «النصرة/ القاعدة» بين حالة إنكارٍ وانفصالٍ عن الواقع في البداية، مروراً باعتبارها «جزءاً من الثورة»، وأخيراً دعوة زعيمها إلى التخلي عن ارتباطه بتنظيم القاعدة، بغية تلميع صورة الجبهة وتسويقها دولياً. ففي تصريحاتٍ موثّقة لبرهان غليون، وجورج صبرا، وكلٍّ منهما تولّى رئاسة «المجلس الوطنيّ»، رأى غليون أنّ «ما يروّجه تنظيم القاعدة عن دورٍ له في ثورة الشعب السوريّ كلامٌ غير صحيح وغير دقيق»، وأنه «مسيءٌ بحقّ شهداء الثورة»، وأن الحديث عن القاعدة ودورها في الثورة «هو من نسيج النظام لتحويل الأنظار عما يحصل، ونرفض أن يلوّث هذا التنظيم السيّئ الذكر ثورتنا».

أمّا صبرا فقال إن «الشعب السوريّ يخوض منذ سبعة عشر شهراً معركةً في كلّ القرى، ولسنا بحاجةٍ لهذا التنظيم الإرهابيّ وادعاءاته التي ليس لها أيّ مرتكزاتٍ حقيقية». وأضاف: «التيارات الإسلامية السورية المتواجدة في قلب الثورة هي تياراتٌ معتدلة ووسطية، وبعيدة كلّ البعد عن التطرّف ورؤية القاعدة وأفكارها، لذا ننفي أن يكون لهذا التنظيم أيّ وجودٍ داخل سوريا»، مؤكّداً أن «الشعب السوريّ ليس بحاجةٍ لأيّ دعمٍ من أيّ جهة، وبخاصّةٍ من القاعدة، هذا التنظيم الذي يملك سجلاً سيّئاً بحق العالم. فالشعب ناهض، ويخرج بالتظاهرات.

والشعب ليس بحاجةٍ إلى هذا الموضوع، وإلى هذا التنظيم الذي يشوّه صورة الثورة وإنجازات الشعب السوريّ البطل». أمّا عضو المكتب التنفيذي للمجلس، سمير نشّار، فوصف القاعدة بأنّها «ظاهرةٌ إرهابيةٌ تمزّق المجتمع، في حين أن المجتمع السوريّ هو مجتمعٌ متنوع. والسنّة في سوريا هم وسطيون ومحافظون، وليسوا من أنصار القاعدة»[١٠].

المفارقة أنّ مجلس هؤلاء نفسه (بضغوطٍ إخوانية ربّما) عبّر، بعد أشهرٍ قليلة، عن «استنكاره» قرار الولايات المتّحدة بإدراج «جبهة النصرة» على قائمة الإرهاب، معتبراً أنّ «كلّ من يقاتل النظام هو جزءٌ من الثورة». حتّى أنّ صفحة «الثورة السورية» خصّصت الجمعة التي تلت القرار الأمريكيّ للتضامن مع «النصرة» ورفض وسمها بالإرهاب.

الأخطر كان قيام المعارضة بإدراج الانتهاكات التي ترتكبها الجماعات الإسلامية ضمن خانة «انتصارات الجيش الحرّ»، كما حصل عند الهجوم على عددٍ من قرى ريف اللاذقية، وحينها أصدر الائتلاف المعارض بياناً يؤيّد ما جرى[١١]. المفارقة أنّ «الجيش الحرّ» لم يكن من نفّذ الهجوم وإنما الكتائب الجهادية، وفي مقدّمتها «جبهة النصرة» و«أحرار الشام»، وأن ما وصفه بيان المعارضة بـ«انتصارات الجيش الحرّ على ضفاف الساحل السوريّ» لم يكن سوى مجازر وانتهاكاتٍ في حقّ المدنيين العزّل، وثّقها تقريرٌ رسميٌّ صادرٌ عن منظمة Human Rights Watch[١٢].

وعلى الرغم من كلّ تلك «الإيجابية» التي طبعت، في النهاية، موقف المعارضة من «النصرة» وسواها من الكتائب الإسلامية، استمرّت غالبية هذه الكتائب في إعلان وقوفها صراحةً ضدّ أيّ حلٍّ سياسيّ، ورفضها كلّ تشكيلات المعارضة السياسيّة، واتهامها بالعمالة للغرب، على نحو ما مرّ بيانه.

٩- تمكن مشاهدة البيان على الرابط
http://www.youtube.com/watch?v=vh1YxmJ7CFw

١٠- انظر: «معارضون سوريون يقللون من أهمية دور القاعدة في الثورة»، على الرابط
http://www.arabsea.com.sa/news-action-s-id-2812.htm

١١- انظر: بيان الائتلاف الوطني لقوى الثورة والمعارضة «انتصارات الجيش الحر على ضفاف الساحل السوري»، صادر بتاريخ ٤ آب/ أغسطس ٢٠١٣

١٢- انظر: «دمهم ما زال هنا»، على الرابط
https://www.hrw.org/ar/report/2013/10/11/256480

«مجاهدون» وسياسيون

ضمن سيرورة التحوّلات في المشهد السوريّ، بدأت بعض المجموعات المقاتلة التي تتبنى «الفكر السلفيّ» تتخفّف نسبيّاً من حمولاتها الأيديولوجية، فشرعت في فتح قنوات اتصال وتشاورٍ مع المعارضة السياسية. ولعلّ تصاعد المخاوف الغربية من «الإرهاب» وتكثيف الحملات العسكرية ضد الجماعات المتطرّفة، إلى جانب شروع الأطراف الإقليمية والدولية المنخرطة في الصراع السوريّ بإطلاق مساراتٍ للتسوية السياسية، كانا في خلفية مشهد تحوّلات مواقف بعض «المجاهدين»، وانخراطهم في السياسة.

من جهتهم، حاول «الإخوان المسلمون» تلميع صورة «النصرة»، وترويجها سورياً وإقليمياً، خصوصاً بعد التقدّم الميدانيّ لـ«جيش الفتح»، التحالف المكوَّن من مجموعاتٍ جهادية، بعضها مقرَّبٌ من الإخوان، وتشكّل «النصرة» عموده الفقريّ. فدعوا الجولاني مراراً إلى فكّ ارتباطه مع «القاعدة»، وإحدى الدعوات أطلقها محمد حكمت وليد، المراقب العام للجماعة في سوريا. في الإطار نفسه يمكن إدراج موقف قناة «الجزيرة» القطرية، المتناغمة مع التوجّهات الإخوانية، حين قام مذيعها أحمد منصور (ذو الميول الإخوانية) باستضافة زعيم الجبهة على شاشة الجزيرة. فمنصور، الشهير بأسلوبه الاستفزازيّ مع ضيوفه، ظهر بأسلوبٍ مختلف في حضرة الجولانيّ، لدرجة أن اللقاء بدا نوعاً من «إعلانٍ ترويجيٍّ» للجبهة وزعيمها، و«دردشةٍ بين صديقين حميمين»، وليس حواراً صحافيّاً[١٣].

جديرٌ بالذكر أنّ محاولة استمالة «جبهة النصرة» وحثّها على الانفصال عن «القاعدة» لم تقتصر على الإخوان، ذلك أنّ خالد خوجة، الرئيس السابق للائتلاف، عبّر عن هذا في أوّل تصريحٍ له عقب انتخابه. غير أنّ ذلك كلّه لم ينفع، وتمسّكت «النصرة» بهويّتها القاعدية.

أمّا التحوّل اللافت والأهم فتمثّل في مشاركة «حركة أحرار الشام الإسلامية» و«جيش الإسلام» في «الهيئة العليا للمفاوضات» التي شكّلتها المعارضة عقب مؤتمرها في الرياض (٩ كانون الأول/ديسمبر ٢٠١٥)، وتسمية المسؤول السياسيّ في «جيش الإسلام» كبيراً للمفاوضين. يدفع هذا التحوّل إلى التساؤل عن دور هذه التشكيلات في المرحلة المقبلة، وكيف ستتعامل مع السياسة واستحقاقاتها، وهي التي تتبنّى أيديولوجياتٍ دينيةً مترعةً بالقداسة.

١٣- للمزيد: طارق عزيزة، «عن إخوان القاعدة»، جريدة الحياة، ١٢ حزيران/يونيو ٢٠١٥

خلاصة

على امتداد خمس سنواتٍ مضت منذ انطلاقتها، أنتجت التحوّلات التي شهدتها الثورة السورية معطياتٍ مركّبةً ومتداخلة، زادت من تعقيدات المشهد السوريّ، وفتحت مستقبل البلاد على احتمالاتٍ شتّى، لا تنسجم مع مقاصد الثورة وغاياتها، كان أبرزها طغيان «الخطاب الإسلاميّ» على المشهد العامّ، نتيجة ظهور الجماعات المنتمية إلى «السلفية الجهادية»، وبعضها مرتبطٌ بـ«الجهاد العالميّ» ومنظماته المصنّفة على قوائم الإرهاب، مروراً بـ«جهاديين معتدلين» لبعضهم صلاتٌ وثيقةٌ مع «الإسلام السياسيّ» التقليديّ. تعلن هذه الجماعات عداءها للديمقراطية، وتحمل أجنداتٍ تناقض المشروع الوطنيّ السوريّ، ممّا أضرّ بالثورة السورية، وبصورتها داخلياً وخارجياً، وانعكس سلباً على موجة التعاطف معها.

أسهم ذلك في تعزيز فرص النظام لاحتواء الثورة، ومحاولته إعادة تقديم نفسه للعالم بوصفه شريكاً في «الحرب على الإرهاب». وإذ يبدو «منطقيّاً» سعي نظام الاستبداد لدفع الثورة نحو «الأسلمة» وإثارته النعرات الطائفية، واستفزاز المنتفضين لدفعهم نحو التطرّف بشتّى السبل، ضمن استراتيجياتٍ توسّلت كلّ ما من شأنه إنهاء الثورة، ووسمها بالتطرّف والإرهاب؛ فإنّ من الأخطاء المدمّرة التي ارتكبتها «المعارضة»، أو بعضها الأهمّ ممن يُفترض بهم تمثيل الثورة سياسيّاً ودبلوماسيّاً، هو تبني سلوك وخطاب يصبّان في اتّجاه أضرّ بالثورة، وحرفها عن خطّها الوطنيّ وشعاراتها وأهدافها الأولى الجامعة.

حركة أحرار الشام الإسلاميّة.. بين الجهاديّة والإخوانيّة

راتب شعبو

في المجال الفكريّ والسياسيّ والتنظيميّ الفاصل بين تنظيم القاعدة وجماعة الإخوان المسلمين وجدت حركة أحرار الشام مكاناً لها. وسَعَت إلى أن تنهج لنفسها طريقاً متمايزاً بقدر ما تسمح هذه المسافة القلقة بين السلفية الجهادية والإخوانية. استطاعت الحركة أن تثبت وجودها في سوريا وأن تنمو وتكتسب قوّةً وشعبيةً واسعةً رغم حداثة عهدها ورغم (وربما بسبب) عدم اتكائها على تنظيماتٍ مكرّسة سلفاً، أكانت تنظيماتٍ محليةً أو خارجية، ورغم احتفاظها بالتمايز أيضاً عن الجيش الحرّ، في وقتٍ كان فيه هذا الوليد العسكريّ السوريّ يحظى باهتمامٍ ودعمٍ إقليميٍّ ودوليّ.

واللافت أن الحركة استطاعت أن تنهض من نكسةٍ كبيرة، تمثلت في مقتل معظم أفراد الصف الأول والثاني من قياداتها وشرعيّيها في حادثة رام حمدان، التي لا تزال غامضةً إلى اليوم، وقضى فيها نحو خمسين من قياداتها وكوادرها في (٢٠١٤/٩/٩). استطاعت الحركة امتصاص الصدمة واختيار قيادةٍ بديلةٍ ومواصلة نهجها، ما مكّنها من الحفاظ على الرأسمال الرمزيّ للقادة الراحلين واستثماره.[١]

السؤال الذي يحرّك البحث هنا هو: كيف حازت حركة أحرار الشام الإسلامية حضورها الوازن ونجحت في استثمار الريح الإسلامية التي شملت الثورة السورية؟

رعايةٌ إقليمية؟

يمكن الاستدلال على إجابةٍ عن السؤال السابق بشأن بروز وانتشار حركة أحرار الشام من ملاحظة العلاقة المميزة للحركة مع كلٍّ من تركيا[٢] وقطر، وهما البلدان اللذان تربطهما علاقةٌ وثيقةٌ مع جماعة الإخوان المسلمين. لماذا يعمل هذان البلدان على مساندة حركةٍ مغايرةٍ لحركة الإخوان المسلمين؟ لماذا لا يراهن البلدان على «جماعتهما» بدلاً من التعويل على حركةٍ بديلة؟

في دراسةٍ لمعهد كارنيغي عن الإخوان المسلمين السوريين، تناولت تفاعل الجماعة مع الثورة حتى شهر أيار/مايو (٢٠١٣)، بعنوان «الصراع من أجل التكيف: جماعة الإخوان المسلمين في سورية الجديدة»[٣]، تظهر مدى ركاكة التنظيم العجوز في الاستجابة لواقعٍ متحرّكٍ كالواقع الذي فجّرته الثورة السورية: «الجماعة تفتقر إلى أيّ قدرةٍ على السيطرة على الأحداث على الأرض». أحد الشباب المتعاطفين مع الإخوان وينتمي إلى عائلةٍ إخوانيةٍ يصف الجماعة بأنها «نادٍ للمتقاعدين». ويمكن اعتبار

١- في دراسةٍ صادرةٍ عن مركز عمران للدراسات الاستراتيجية، بعنوان «أحرار الشام بعد عامٍ طويل»، في ٣٠ أيلول/سبتمبر ٢٠١٥، يتناول الباحث أحمد أبازيد تاريخ حركة أحرار الشام خلال سنةٍ من مصرع قادتها. وتظهر الدراسة قدرةً لافتةً للحركة على امتصاص الصدمة واختيار قيادةٍ بديلة، في وقتٍ نعت فيه كتاباتٌ عديدةٌ الحركة واعتبرت حادثة رام حمدان بمثابة ضربةٍ قاضية

٢- من المعروف أن الحركة تتخذ من تركيا مقرّاً لمكاتبها، وتتحكم بمعبر باب الهوى على الحدود التركية السورية. ومن مؤشرات العلاقة المميزة بين الحركة وتركيا قبول الحركة بحقّ تركيا في التدخل شمال سوريا لمنع نشوء دولةٍ كردية، وإعلان الحركة استعدادها لمساعدة تركيا في حماية أمنها ومستقبلها، رغم ما جلبه لها هذا الموقف من انتقادٍ حادٍّ من جبهة النصرة واعتبارها جماعة الأحرار «عملاء الخارج، ورسل المرتدين» وصولاً إلى التكفير .http://www.turkpress.co/node/10380

٣- http://goo.gl/FjSIgw معهد كارنيغي، الصراع من أجل التكيف

بروز «مجموعة العمل الوطنيّ من أجل سوريا»، التي كان أحمد رمضان وعبيدة نحاس من أبرز عناصرها، بمثابة حركة احتجاجٍ شبابيةٍ ضد تنظيمٍ شائخ من حيث عمر قادته وابتعادهم المزمن عن الواقع السوريّ من جهةٍ، ومن حيث تردّدهم في الاستجابة للانفجار السوريّ، من جهةٍ أخرى.

عملت الدول الإقليمية الساعية إلى حماية نفسها من ارتدادات ومفاعيل الحدث السوريّ على دفع الثورة السورية باتجاه إحداث تغيير إسلاميٍّ في سوريا. وأدركت هذه الدول أن الإخوان المسلمين حصانٌ خاسر، أو، على الأقلّ، حصانٌ لا يسعه أن يكون الرهان الأول، وأن القدرة الخارجية للإخوان في المنفى لا تقابلها قدرةٌ داخلية، بعد أن هزمت الجماعة داخل سوريا في ١٩٨٢، ولوحقت أمنياً وقانونياً (القانون ٤٩ الذي يعاقب بالإعدام أيّ منتمٍ إلى الجماعة). فضلاً عن أن الجماعة تحمل عقدة العمل المسلح منذ ثمانينات القرن الماضي[٤]، في الوقت الذي كان الحلّ العسكريّ مع نظام الأسد هو الحلّ الوحيد في نظر كثيرين، ومنهم مؤسّسو أحرار الشام.

على هذا يصبح من المنطقيّ أن تعمل هذه الدول على تشكيل، أو بالأحرى دعم، تنظيم جديد. التنظيم الإسلاميّ الذي يمكن أن يخدم الغاية يجب أن يكونَ جديداً، أي متحرّراً من أعباء الخلافات الداخلية المتراكمة وخطوط الانقسام التي تعتمل في التنظيمات القديمة وتشل فاعليتها؛ ويجب أن يكون مرناً في صيغته التنظيمية فلا يحتاج العضو إلى أشهرٍ كي يُبتّ في أمره؛ كما يجب أن يكون ريفياً أكثر منه حضرياً نظراً إلى أن الزخم الثوريّ تركّز في الريف حيث الحضور الأمنيّ للنظام أقلّ وحيث البيئة أكثر ملاءمةً للعمل العسكريّ ضدّه. كلّ هذه الشروط غائبةٌ، في الواقع، عن تنظيم الإخوان المسلمين، ولذلك جرى العمل على دعم تنظيمٍ شبابيٍّ جديد. وكان من المهم أن يتحرّر التنظيم الجديد، إلى ذلك، من تبعات القاعدة، لما يمكن أن تجرّ الصلة مع القاعدة من أعباء وحمل وزر ماضٍ سيئ الصيت في نظر المجتمع الدوليّ، وكذلك القسم الأكبر من الجمهور السوريّ.

٤- معهد كارنيغي، «الصراع من أجل التكيف»، المصدر السابق: حتى بعد أن حسم الإخوان المسلمون أمرهم في آذار/مارس ٢٠١٢ بدعم العمل المسلح ضد النظام السوري، وتشكيل ما أطلق عليه «هيئة دروع الثورة»، ظلت الجماعة تتنكر لها. وبعد أن أعلن ملهم الدروبي، في آب/أغسطس ٢٠١٢، أن الجماعة قد شكلت وحداتها المسلحة، سارع المراقب العام للجماعة رياض الشقفة إلى إنكار هذا ببيانٍ رسميّ، قائلاً إننا ندعم المعارضة المسلحة ولكن **هذا لا يعني أن لدينا وحداتٌ خاصّةٌ بجماعة الإخوان**

ما سبق جعل أحرار الشام، الذين يسعون إلى توطيد أنفسهم بصيغةٍ مستقلةٍ يتمايزون بها عن الذهنية القاعدية أو الإخوانية، حصانَ الرهان بالنسبة إلى هذه الدول، ولا سيما تركيا وقطر. وكان في هذا ربحٌ وخسارةٌ للتنظيم الجديد؛ يتجسّد الربح في المقبولية الشعبية العامة من جهةٍ والدعم الإقليميّ من جهةٍ أخرى، والخسارة هي وقوع الحركة الدائم بين قوّتي شدّ: الأولى هي الإسلامية الجهادية العالمية ممثلةً في الدولة الإسلامية (داعش) وجبهة النصرة، والثانية متمثلةٌ في قوىً غير جهاديةٍ (مظلة الجيش الحرّ، وقوى المعارضة السياسية).

يمكن، والحال هذا، النظر إلى تاريخ الحركة على أنه المسار الذي رسمته أحرار الشام تحت تأثير محصلة قوى الشدّ هذه خلال سنوات الثورة. وسوف نستبق البحث بالقول إن الميل العام لمسار الحركة، من حسان عبود (منذ تاريخ إعلان الحركة في تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠١١، حتى أيلول/سبتمبر ٢٠١٤) إلى هاشم الشيخ (أيلول/سبتمبر ٢٠١٤ – أيلول/سبتمبر ٢٠١٥) إلى مهند المصري (أيلول/سبتمبر ٢٠١٥ – حتى الآن) كان باتجاه الانفكاك، في النظرة العامة وفي السلوك واللغة، عن السلفية الجهادية والاقتراب لا من قوى الثورة، كما تشير دراسة «أحرار الشام بعد عام طويل» لأحمد أبازيد، بل من الإخوانية بصفتها التعبير الإسلاميّ الذي يحرص على القبول العامّ والعالميّ (براغماتيةً أو تقيةً) مع «جهاديةٍ» بمقاييس واعتباراتٍ محليةٍ أساساً، بما يجعلها أكثر استيعاباً لفاعليات الانتفاضة ضد النظام السوريّ. وقد وصل التحول الإخوانيّ للأحرار حدّاً جعل المراقب العام لجماعة الإخوان المسلمين في سوريا، محمد حكمت وليد، يقول بوجود «قواسم مشتركة بين الجماعة والحركة، ما يجعلها أرضاً خصبة لتعاونٍ كبير، وفرصةً لخلق التكامل بين السياسيّ والعسكريّ»[٥]، وقد شاع حينها الحديث عن اندماجٍ بين الأحرار والإخوان. غير أن الأحرار لم يعلقوا لا على العرض الإخوانيّ ولا على إشاعات الإندماج، ما دفع المكتب الإعلاميّ للإخوان إلى نفي العرض واعتبار أن المراقب العام كان يتحدث عن «رؤيةٍ للتكامل ما بين السياسيّ والعسكريّ، وما بين الجماعة وبقيّة الفصائل على اختلافها وتنوّعها، ولم يقتصر الحديث على فصيلٍ محدّد».

الابتعاد عن النهج القاعديّ

تقول حركة أحرار الشام الإسلامية عن نفسها، في ٢٠١٥/٨/٢٤، إنها «حركةٌ إسلاميةٌ سوريةٌ أصيلة، انبثقت من الشعب السوريّ للدفاع عنه

٥- موقع عربي ٢١، «إخوان» سوريا يعلنون عن رغبتهم التكامل مع «أحرار الشام

وعن مصالحه وهويته[٦] وتعتمد الحركة في بنائها الأساسيّ والقياديّ على أبناء الشعب السوريّ، وليست لها علاقةٌ تنظيميةٌ بأيّ أطرافٍ خارجيةٍ بما فيها تنظيم القاعدة»[٧]. وبكلام أبو عبد الله الحموي، زعيم أحرار الشام الذي قضى في حادثة رام حمدان: «إن أحرار الشام ليست قاعدة ولا إخوان ولا حزب تحرير ولا حتى تتبع للجيش الحرّ»[٨].

على أن النموّ السريع الذي تميّزت به الحركة، والإنجازات العسكرية التي حققتها خلال فترة قياسية، تثير السؤال، وتبرّر قول بعضهم بأنها واجهةٌ «معتدلةٌ» لتنظيم القاعدة، أو إنها إحدى جماعات تنظيم القاعدة غير الرسمية، مستندين إلى أنها تأسّست بمباركة ومشاركة مندوب الظواهريّ إلى سوريا أبي خالد السوريّ، الذي اغتيل في تفجيرٍ في حلب في (شباط/فبراير ٢٠١٤) على يد انتحاريين من داعش حسبما هو شائع. كما يستندون إلى أن الظواهري سبق أن وضع، في تسجيلٍ صوتيٍّ له، قائد أحرار الشام، حسان عبود (أبو عبد الله الحموي) في المرتبة نفسها مع أبي محمد الجولاني وأبي بكر البغدادي[٩]. والحقّ أنه لا يخلو الأمر من مستنداتٍ لهذا القول، فالحركة كانت في علاقةٍ مميزةٍ وتحالفاتٍ متكرّرةٍ مع جبهة النصرة كما هو معلوم[١٠]، وتعاونت الحركة مع داعش في إدارة معبر تل أبيض على الحدود مع تركيا. وبحسب رواية قائد كتائب فاروق الرقة محمد الضاهر «أبو عزام»، استولت داعش على المعبر من كتائب الفاروق بالقوّة وسلمته إلى أحرار الشام بشكلٍ جزئيٍّ ليصبح الطرفان مسؤولين عن المعبر[١١].

لكن، بعيداً عن التحليلات الظنية التي تذهب عكس ما تصرّح به الحركة عن نفسها، تميّزت أحرار الشام عن القاعدة عسكرياً باعتمادها العنصر السوريّ أساساً، وزاد اعتمادها عليه مع الوقت (ولهذا، بلا شك، بعده السياسيّ والفكريّ). ومن الواضح أن الحركة استفادت في البداية

٦- تبقى قضية «الهوية» النقطة الجامعة لدى شتى صنوف التيارات الإسلامية التي ترى الهوية معطىً منتهياً تجب صيانته، وليست عمليةً تطوريةً منفتحةً على الاغتناء والتفاعل. في ميثاق الجبهة الإسلامية السورية، التي كانت كتائب أحرار الشام أهمّ مؤسسيها، يأتي هدف «المحافظة على الهوية الإسلامية في المجتمع» في الترتيب الثالث، بعد إسقاط النظام وتمكين الدين في الفرد والمجتمع والدولة. ويلفت النظر حرص الميثاق على إضافة صفة «حضاريّ» إلى المجتمع الإسلاميّ الذي تصبو إليه الجبهة، دون أن يدرك القارئ المحتوى المقصود من هذه الصفة

٧- أحرار الشام بعد عام طويل (الملحق١)، مصدر مذكور سابقاً

٨- موقع عربي ٢١، فيلم وثائقي لـ«لجزيرة» عن أحرار الشام

٩- قناة المنار، زلزال رام حمدان يقضي على «أحرار الشام»... نهاية حلم الظواهري في سوريا

١٠- عدا عن العلميات العسكرية المشتركة الكثيرة، وأهمها عملية السيطرة على معسكري الحامدية ووادي الضيف، وعن التحالف ضمن «جيش الفتح»؛ جمع جبهة النصرة وأحرار الشام موقف رفض «ائتلاف قوى الثورة والمعارضة السورية» والتوافق على «تأسيس دولة إسلامية عادلة»، ما أسهم في زعزعة شرعية الائتلاف بوصفه الممثل السياسيّ للثورة في الخارج

١١- أورينت نت. حرب المعابر: معارك بين مقاتلي الدولة الإسلامية وكتائب الفاروق
http://www.orient-news.net/ar/news_show/4229

من الخبرة العسكرية المتراكمة من الجهاد في العراق وأفغانستان لدى بعض من انخرط فيها وكان بينهم أجانب[١٢]، فقامت بعملياتٍ عسكريةٍ كبيرةٍ لافتة، شدّت إليها الأنظار وفتحت لها منابع التمويل. وتميّزت الحركة بالاعتماد الكبير على العبوات الناسفة ذات الفعالية، وهي الطريقة التي جرى نقلها من خبرة الجهاد في العراق، وزوّدت الحركة تشكيلاتٍ عسكريةً أخرى بها، كما يرد في فيلم الجزيرة الآنف الذكر. ويلفت النظر، من الناحية العسكرية، أن الحركة لا تعتمد العمليات الانتحارية (أو على الأقلّ لا تجاهر بها)، وهي تسمّي هذه العمليات انتحاريةً وليس استشهادية، ما ينطوي على بعدٍ شرعيٍّ مختلفٍ عن شرع تنظيم القاعدة.

حافظت أحرار الشام الإسلاميةً على مسافةٍ سياسيةٍ لها عن تنظيم القاعدة، فهي تؤكّد على سوريتها وتبتعد عن النهج الأمميّ الإسلاميّ في رهن سوريا لسياق جهادٍ عالميّ، فتنظر إلى سوريا كوطنٍ وتعتبر من مهامها «إنشاء جيشٍ وطنيّ» (وليس إسلامياً)[١٣]، ولا تعتمد المظهر الأفغانيّ في اللباس، ولا تضع شعاراتها في الجوامع، وتحترم مظهر وعادات ونمط عيش الأهالي، وهي في هذا أقرب إلى الإخوان المسلمين. فضلاً عن أن غالبية «أحرار الشام» يمتلكون اعتباراً ملحوظاً تجاه روح العصر في مظهرهم وممارساتهم.

ثمة في الفكر القاعديّ إدارة ظهرٍ واضحةٌ للعالم، بكلّ معاييره وتوافقاته وسياساته. إما أن يكون العالم على صورتنا أو نحاربه حتى يصبح كذلك. هذه الثنائية، التي تقسم العالم إلى «فسطاطين»، تضع التنظيمات القاعدية في مواجهة العالم ككلّ، فلا مجال للمفاضلة بين الدول في درجة السوء، تماماً كما لا توجد منزلةٌ بين الكفر والإيمان. وفي حين يشكّل هذا الاعتبار القصوويّ إغراءً للقلوب المعذبة التي تشدها الإطلاقيات، وهذا أحد جوانب جاذبية التنظيمات القاعدية للجيل الشاب، فإن هذا الاختزال الشديد يحكم على التنظيمات القاعدية بالعزلة التامة والفشل الأكيد في النهاية.

ابتعد تنظيم أحرار الشام في سوريا عن النهج القاعديّ، وحرمه هذا الابتعاد من الجاذبية المذكورة، وتركه تحت ضغط المزايدة الجهادية الإسلامية المستمرّة، ولكنه أعطاه امتيازاً أهمّ جعله يحوز مقبوليةً أكبر لدى المجتمع الدوليّ، وهذا ما شهدناه في نجاته من التصنيف ضمن التنظيمات الإرهابية، وفي دعوته إلى مؤتمر المعارضة السورية في الرياض (كانون الأول/ديسمبر ٢٠١٥)، وقبوله كشريكٍ في مفاوضات التسوية في جنيف. ولا يخفى على المتابع أن بيان انسحاب الحركة من مؤتمر الرياض «بسبب ضعف تمثيل الفصائل المجاهدة، ووجود شخصياتٍ لا يخفى

١٢- حازم السيد، السلفية الريفية الصاعدة في سوريا: حركة أحرار الشام الإسلامية نموذجاً»، مركز دراسات الجمهورية الديموقراطية: «يتضمن موقع الحركة تبويباً خاصاً بالشهداء نشرت فيه صوراً لشهداء أجانب من الحركة، ولم تبد الحركة امتعاضاً من هؤلاء المقاتلين في أي يوم، ولكنها لم تعمل على التحول إلى بؤرة لاستقطابهم تحسباً للضريبة الإعلامية والسياسية التي يمكن أن تلحق بالحركة بسبب وجودهم

١٣- على أن التعارض المتأصّل بين صفتي الوطنية والإسلامية يحيل الكلام عن جيشٍ وطنيٍّ على لسان الإسلاميين إلى نوعٍ من التورية

انتماؤها للنظام السوري»[١٤]، ثم عدول الحركة عن الانسحاب وتوقيعها البيان الختاميّ، جاء تحت تأثير قوّتي الشدّ المذكورتين آنفاً على حركة أحرار الشام التي واظبت على محاولة إمساك العصا من المنتصف.

فضلاً عما سبق، حافظت حركة «أحرار الشام» على مسافة تنظيمية وفكرية عن الجيش الحرّ، فهي لم تلتزم علم الاستقلال الذي بدأ ظهوره في المظاهرات المناهضة للنظام منذ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠١١، تماماً كما لم تلتزم علم القاعدة. ورغم أن أحرار الشام قبلوا أن تُنسب العمليات العسكرية التي كانوا يقومون بها إلى الجيش الحرّ في نشرات أخبار قناة الجزيرة، إلا أنهم في الواقع كانوا أقرب إلى القاعدة خلال معظم جولات الصراع. وقد اتخذت الحركة موقف المتفرّج من عمليات التصفية التي تعرّضت لها كتائب تنسب نفسها إلى الجيش الحرّ على يد جبهة النصرة التي كانت تتجاوز التسويات والمصالحات التي ضمنتها أحرار الشام. جرى ذلك في تصفية النصرة لجبهة ثوار سوريا، إذ وقف أحرار الشام على الحياد، وفي الهجمة المماثلة للنصرة على حركة حزم، والتي لم تتوقف رغم اتفاق الهدنة الذي رعته الحركة وعجزت عن إلزام النصرة باحترامه، حتى أعلنت «حزم» حلّ نفسها مطلع آذار/مارس ٢٠١٥.

يذكّر سلوك أحرار الشام هذا بسلوكها خلال صراع الفصائل في الرقة غداة إخراج النظام منها. ففي دراسة «الرقة: من عباءة الأسد إلى سيف الدولة الإسلامية» يقول الكاتب: «كان هناك نوعٌ من التواطؤ الصامت بين أحرار الشام والنصرة، حيث تركت أحرارُ الشام النصرةَ، ولاحقاً الدولة، تظهر بمظهر الأخ الشرير لتظهر هي رحيمة أمام تشدد الآخرين»[١٥].

مسعىً مضطربٌ للحفاظ على التمايز

كانت كتائب أحرار الشام من أوائل التشكيلات التي حملت السلاح (أيار/مايو ٢٠١١) بحسب زعيمها حسّان عبود الملقب بأبي عبد الله الحموي[١٦]، ولكن دون الإعلان عن نفسها حتى (تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠١١). وهذا يفسر توفر الحركة (اندماج أربع جماعات هي جماعة الطليعة الإسلامية، وحركة الفجر الإسلامية، وكتائب الإيمان المقاتلة، وكتائب أحرار الشام) على حوالي ٢٥ ألف مقاتل (الغالب أن الرقم مبالغٌ فيه درجاً على عادة الفصائل في المبالغة في أعدادها) عند إعلان التأسيس[١٧]. وينسجم هذا القول أيضاً مع قناعة عبّر عنها أحد مؤسّسي الحركة الملقب أبو يزن الشامي (محمد الشامي)، وهي أن النظام السوريّ لا يمكن أن يرحل إلا بالعنف، وأن التريث في استعمال السلاح في فترة المظاهرات السلمية كان الغرض منه أن يقتنع الناس بأنفسهم أن السبيل السلميّ مع هذا النظام لا أفق له للنجاح[١٨].

وفي حين كانت التشكيلات العسكرية التي راحت تتشكّل، بعد حوالي ستة أشهر من انطلاق الثورة السورية، تنضوي، ولو بالتسمية، تحت اسم الجيش الحرّ؛ فإن أحرار الشام كان التشكيل الأول الذي سبق في تشكّله نشوء ظاهرة الجيش الحرّ، ورفض الانضواء تحت هذا الاسم، مع قبول أن تنسب العمليات العسكرية التي كان يقوم بها إلى الجيش الحرّ إعلامياً، كما أسلفنا[١٩].

وقد شارك الأشخاص الذين سيصبحون في ما بعد قادة تشكيلات عسكرية في حركة أحرار الشام الإسلامية، في المظاهرات في المرحلة السلمية من الثورة. وحين عادت المظاهرات، بعد صمود الهدنة في سوريا منذ (٢٧ شباط/فبراير ٢٠١٦)، تمايز موقف أحرار الشام عن موقف جبهة النصرة. ففي حين عملت النصرة على تفريق مظاهرة في معرة النعمان في إدلب ومنعت رفع علم الثورة، أيدت حركة أحرار الشام المظاهرات ورفع علم الثورة، ما أثار خلافاً مع الجبهة. واعتبرت أحرار الشام أن لا تعارض بين راية التوحيد وراية الثورة، وأن «من أهان

١٤- بيان انسحاب حركة أحرار الشام من مؤتمر الرياض
http://goo.gl/dIO3wY

١٥- خلف علي الخلف، «الرقة: من عباءة الأسد إلى سيف الدولة الإسلامية»، مركز دراسات الجمهورية الديموقراطية
http://drsc-sy.org/wp-content/uploads/2015/07/KHALAF.pdf

١٦- مقابلة قائد أحرار الشام مع تيسير علوني
https://www.youtube.com/watch?v=GRPb4nFU2UA

١٧- حركة أحرار الشام الإسلامية: المكوّنات والنشأة
http://goo.gl/zwdwx6

١٨- فيلم الجزيرة عن أحرار الشام، مصدر سابق

١٩- ترجّح أن تكون موافقة الحركة على هذا جاءت تحت ضغط الرعاية القطرية بغرض المحافظة على زخم الثورة بتضخيم فاعلية الجيش الحرّ الذي كان يحوز على قبولٍ شعبيٍّ واسع، والاطمئنان، في الوقت نفسه، إلى أن طبيعة القوة الحقيقة على الأرض هي «إسلامية قطرية» إن صحّ القول

العلم الذي اختاره شعبنا المسلم فقد عرّض نفسه للإهانة»[٢٠].

بين موجة المظاهرات السلمية في بداية الثورة وموجة المظاهرات الثانية اليوم، شهدت حركة أحرار الشام تبدلاً فكرياً سياسياً قاد من المطالبة بـ«أن يكون الدين الإسلاميّ السنّي دين الدولة والمصدر الوحيد للتشريع»، كما جاء في ميثاق الجبهة الإسلامية التي تشكلت أواخر (٢٠١٣) وتولت حركة أحرار الشام قيادة المكتب السياسيّ فيها، إلى «نحن نؤمن أن سورية تحتاج إلى مشروعٍ وطنيٍّ جامعٍ لا يمكن أن تتحكّم به أو تنجزه جهةٌ أو جماعةٌ واحدة، ولا يجب أن يرتبط الحل بإيديولوجيا واحدة»، كما جاء في مقالة مدير مكتب العلاقات الخارجية للحركة، لبيب نحاس، والتي نشرتها الواشنطن بوست (١٠ تموز/يوليو ٢٠١٥)[٢١].

الحقّ أن الكثير من قيادات أحرار الشام امتاز بالقابلية للتطوّر ونقد الذات، وهذا ما جعل الخطّ العامّ لمسار الحركة تطوّرياً، من منظور الثورة السورية، يبتعد أكثر عن السلفية الجهادية[٢٢]، حتى عن النسخة المحلية منها، ليتجه إلى فهم إسلاميٍّ أكثر اعتدالاً. من اللافت مثلاً اعتذار أبو يزن الشاميّ عن سلفيته مخاطباً أهل الشام: «نعتذر لكم لأننا أدخلناكم في معارك دنكوشوتية أنتم في غنى عنها، وأعتذر عن تمايزي عنكم وانغلاقي الفكري، بحجة أنني من السلفية الجهادية» ويقول: «أنا كنت سلفياً جهادياً، وحُبست على هذه التهمة، واليوم أستغفر الله وأتوب إليه»[٢٣].

ولكن ما تقدّم لا ينفي الحديث عن وجود ثلاثة تيارات داخل الحركة، يقف على رأس التيار المعتدّل زعيمها الحاليّ «أبو يحيى الحموي» ومعه لبيب نحاس، وهو يدعو إلى التخلي عن الهوية السلفية والتعاون مع المجتمع الدوليّ. وعلى رأس التيار المتشدّد (القريب من النصرة) يقف القائد العسكريّ العامّ «أبو صالح طحان» والشرعيّ العام للحركة «أبو محمد الصادق»، الذي رفض الهدنة التي فرضت في (٢٧ شباط/فبراير ٢٠١٦)، تضامناً مع جبهة النصرة التي استثنيت منها، معتبراً أن مواصلة القتال واجبٌ دينيٌّ حتى قيام «الدولة الإسلامية». وفي اتجاه التضامن مع النصرة يأتي أيضاً تصريح الطحان: «لئن تزهق أنفسنا جميعاً خير لنا من أن نسلم أخاً نصرنا حين عز النصير»[٢٤]. وتيار الوسط الذي يمثله أبو جابر الشيخ الذي يحاول منع التصادم والحفاظ على وحدة الحركة.

ولئن كان «اعتدال» الأحرار من الأسباب التي قرّبتهم إلى الجمهور الثائر، فإن من طبيعة الجهاد الإسلاميّ أن باب الغلوّ فيه مفتوحٌ على الدوام، وليس من السهل أن يصمد المعتدلون أمام جاذبيته، ولا سيما إذا بدا الظلم مستحكماً، وقيّض للغلوّ أن يمتلك القدرات المادية. الأمر الذي يمكن أن يفسّر هزيمة الحركة أمام الدولة الإسلامية (داعش) في الرقة، ووجود دائم لتيار «نصراويٍّ» داخلها. ففي الرقة هزمت الحركة على يد داعش لأن مقاتلي الأحرار رفضوا، بسبب اعتدالهم وضعف استلابهم الأيديولوجي للحركة، قتال من يرفعون راية الإسلام[٢٥]. وفي الحسكة والرقة ودير الزور بايع الكثير من مقاتلي الأحرار داعش، إلى جانب الكثير من مقاتلي النصرة أيضاً. ففي الجهاد تكثر المزايدات وتزداد القوة المعنوية للتنظيم كلما زاد في الغلوّ.

بعد أن وقّع الأحرار ميثاق الشرف الثوريّ الذي يضمن احترام حقوق الإنسان في إطار دولة العدل والقانون والحرّيات، فضلاً عن التمسّك بالنسيج السوريّ الاجتماعيّ المتنوّع بكافة أطيافه العرقية والطائفية، مع ترك مرجعية تحديد نمط الحكم بعد سقوط النظام للشعب السوري[٢٦]؛ اتهمت النصرة الموقّعين بأنهم غلّبوا «روح الوطنية وروح المواطنة والانتماء إلى التراب والوطن على الأخوّة الإيمانية»، مما اضطرّ

٢٠- كلامٌ لعضو شورى أحرار الشام أبو عزام الأنصاري. ويتابع الأنصاري قائلاً: «قرر ثوارنا الذين خرجوا من المساجد رفع علم ثورتنا، وحاكته حرائرنا بأياديهنّ الطاهرة، وكفّنّا به شهداءنا. ونقول للمزاودين: ليس لأحدٍ في هذه الثورة منّةٌ على أحد، فإن كان ولا بدّ فلعوام المسلمين فضلٌ علينا، ولهم منا واجب النصرة والاحترام والتقدير
http://www.newscenter.news/ar/news/view/15365.html

٢١- يعجز السيد لبيب نحاس أن يواظب على هذه اللغة، فهو يقترح على أميركا، في المقال نفسه، أن تكون أحرار الشام هي البديل السنّي المحليّ

٢٢- الدرر الشامية. أبو يزن الشامي يعتذر لأهل الشام ومجاهديها ويوجه رسالةً إلى المقدسي والمحيسني
http://eldorar.com/node/58862

٢٣- من صفحة دمشق الآن على الفيسبوك

٢٤- عمر كايد، «هدنة سورية تفجّر خلافاتٍ بين أحرار الشام وتهدّد جيش الفتح بالتفكك»، الحياة ١١ آذار/مارس ٢٠١٦

٢٥- فيلم للجزيرة عن أحرار الشام، مذكور سابقاً. وذكرنا أعلاه أن هناك مقاتلين من أحرار الشام يتهمون قياداتهم بالتخاذل أمام داعش. النتيجة واحدة أكان الضعف النفسيّ أمام داعش من القادة أم من المقاتلين

٢٦- مركز الشرق العربي، ميثاق الشرف الثوريّ: بنوده وبعض ردود الفعل عليه
http://goo.gl/v7prx9

حسان عبود إلى الردّ بتغريدةٍ على تويتر: «إن قيام دولة إسلامية عادلة راشدة هو هدف استراتيجي غائي عندنا. ومن زعم أننا فتنّا في ديننا وبعنا ذممنا بعرضٍ من الدنيا فهذه دعدشة نعرفها من أخرق»[٢٧].

الدائرة الإسلامية المغلقة

ظلّ ما أشرنا إليه من تحوّلٍ في مسار حركة أحرار الشام ضمن الدائرة الإسلامية وما تتيحه. فتحت تأثير التحوّلات التي شهدها مسار الحراك السوريّ نفسه، سواء تحولاته الداخلية أو تحولات المشهد الدوليّ من حوله، ابتعدت الحركة عن الجهادية العالمية لصالح صيغةٍ إسلاميةٍ أكثر قابليةً لاستيعاب روح العصر. ولكنها، كحركةٍ إسلاميةٍ، تبقى رهينة محبسها الخاص. فحسان عبود، زعيم الحركة الذي ينظر إليه على أنه قطب الاعتدال فيها، وتذهب تحليلاتٌ إلى أنه كان العقبة في وجه سيطرة جبهة النصرة على ريف إدلب، حتى أن هناك من شكّك في أن تكون النصرة وراء مقتله مع زملائه؛ يؤكّد «على ضرورة التعايش بين أبناء الوطن الواحد مهما اختلفت مشاربهم وعقائدهم، ويترتب على ذلك حقوقٌ وواجباتٌ متبادلة، وتجعل أصل حرمة الدماء والأموال والأعراض مشتركاً بين الجميع»، ولا مساس بشيءٍ من هذا إلا وفق «أحكام الشريعة الإسلامية»، وهذا ينتهي بالفعل إلى تكريس ذميةٍ مواطنيةٍ وسياسية[٢٨].

في مسعى الحركة لتقديم نفسها بصورة مقبولة للغرب[٢٩] يكتب لبيب نحاس في الواشنطن بوست الأميركية (١٠ تموز/يوليو ٢٠١٥): «نعتبر أنفسنا جماعةً إسلاميةً سنّيةً نقاتل من أجل تحقيق العدالة للشعب السوريّ». هذا الجمع بين ما لا يُجمع هو ما يميّز «الإسلام المعتدل»؛ الجمع بين فئوية الحركة «سنّية» وبين «تحقيق العدالة للشعب».

وفي مقالٍ آخر لنحاس في التلغراف البريطانية (٢١ تموز/يوليو ٢٠١٥) يكتب، ضمن المسعى التقاربيّ مع الغرب: «نحتاج بديلاً سنّياً في سوريا يحلّ محلّ النظام وداعش». تلك هي المعضلة الإسلامية التي نسمّيها «الدائرة المغلقة»، ذلك أن الإسلامية لا تنفتح على الوطنية أو لا تتواءم معها، فهما ولاءان غير متطابقين، إعلاء أحدهما سيكون بالضرورة على حساب الآخر. من الصعب أن يتحوّل أحرار الشام إلى تنظيمٍ وطنيّ، كما يصعب على حزب الله في لبنان أن يتحوّل إلى حزبٍ وطنيٍّ رغم كل إنجازاته «الوطنية».

خاتمة

دافع المقال عن فرضيةٍ تقول إن جمع حركة الأحرار بين «إخوانية» سياسية و«جهادية» عسكرية هو ما أتاح لها التميّز وجعلها رهاناً واعداً لداعمين إقليميين شكلوا سنداً مادياً ومعنوياً لها. ولا شكّ أن ميل الأحرار باتجاه الإخوانية السياسية (صيغةٌ إسلاميةٌ تقبل الانفتاح على الغرب) من شأنه أن يضعف جاذبية الحركة وروحها القتالية، لأنه يخفّف شحنة العدائية تجاه العالم، فليس غريباً أن الإسلاميين الأكثر تطرّفاً هم الأكثر شعبيةً بين المقاتلين «المجاهدين».

رصدت المقالة أيضاً تحرّك الأحرار، تحت تأثير معطياتٍ داخلية ودولية، على خطٍّ سياسيٍّ إسلاميٍّ عامٍّ يبتعد بهم عن السلفية الجهاديةٍ ويقترب بهم من الإخوانية. مع ملاحظة وقوع الحركات الإسلامية جملةً في إسار دائرةٍ مغلقة، يصعب الخروج من قيدها إلا بالخروج منها إلى دائرة وطنيةٍ منفتحة لا تحنّط هوية المجتمع، فتخنقه من حيث تظن أنها تحميه وتحافظ على هويته.

٢٧- فادي الداهوك، ربطات عنق أحرار الشام. المدن
http://goo.gl/QOkqQP

٢٨- السلفية الريفية الصاعدة في سوريا: حركة أحرار الشام الإسلامية نموذجاً، مذكور سابقاً

٢٩- وهذا مؤشرٌ صريحٌ على نزوعٍ براغماتيٍّ كانت تفتقده الحركة حين قام المبعوث الأميركيّ إلى سوريا «روبرت فورد»، في ١٨ كانون الأول/ديسمبر ٢٠١٣، بالاجتماع مع الجبهة الإسلامية وأعلنت رفض الحوار مع الولايات المتحدة الأميركية

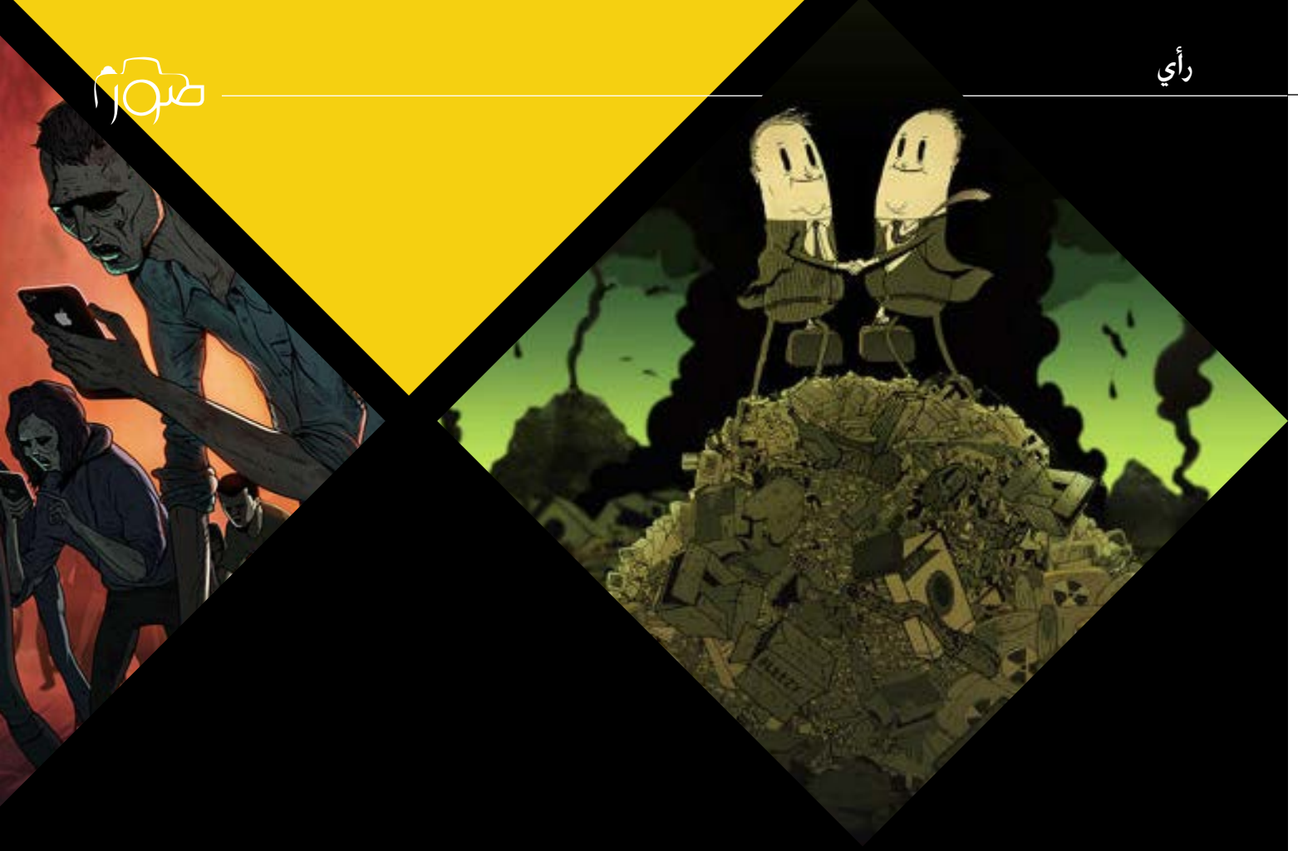

لوحاتٌ أصليَّةٌ في حضارةٍ مزيّفة

نارت عبد الكريم

عَمِلَ السَّحَرَةُ والمشعوذون، في العصور القديمة، على تشويه فكرة الروح وشيطنتها أحياناً. ومن بعدهم جاءَ رجال الدين فساروا على النهج عينه. أمَّا الفلاسفة والعلماء فكانوا أَكْثَرَ ذكاءً وأَشَدَّ تعقلاً إذ اتخذوا منها موقفاً جذرياً، صارماً وحاداً، حين قاموا باجتثاثها نهائياً وعملوا على نفيها الى خارج عالمنا. وبفضلهم، والحمد لله، أضحى عالمنا الحديث بلا روحٍ تماماً.

إنَّ هذا البَتْرَ والفقدان الذي يعانيه الإنسان في عصرنا الحاليّ يسببان له ألماً ومعاناةً شديدين، تظهر بعض عوارضهما على شكل إحساسٍ غامضٍ بالضياع والخواء، بالإضافة الى خوفٍ مزمنٍ من الوحدة ومن السكون. كلّ تلك الأسباب والعوارض تدفعه إلى تعاطي كلّ أنواع المخدرات والمسكنات بلا توقف، بدءاً من لهاثه خلف الجنس، مروراً باجتراره الطعام والشراب والأفكار كذلك، وصولاً إلى تعاطيه الفنون جميعها.

إنَّ مشهد وقوف الناس طوابير طويلة، منذ الصباح الباكر، لدخول معرضٍ هنا ومتحفٍ هناك، يضمّ أعمالاً فنيةً أو لوحاتٍ تشكيليةً لفنانين كبارٍ وصغار، لهو مشهدٌ مألوفٌ وكثير التَّكرار في البلدان «المتقدمة». وتعدّ لوحتا «عبّاد الشمس» و«حقول القمح»، للفنان الهولنديّ «فان كوخ»، من أغلى وأشهر الأعمال الفنية التي تستقطب ملايين الزوّار من شتى أنحاء العالم.

وهنا تكمن المفارقة والمأساة في الآن ذاته؛ فمن شاهدَ، من هؤلاء الملايين، في حياته كلها، حقل عبّاد شمسٍ حقيقياً أو حتى حقل حنطة؟ وعلام غدت الصورة، في حضارتنا الحديثة، أَكْثَرَ جاذبيةً واهتماماً من الأصل؟ وعلام غدا الميتُ أَجْمَلَ من الحيّ؟

المجتمع الديناميتيّ الحيّ

باران حسو

> المجتمع هو النظام نصف المغلق من العلاقات بين الناس. وتتشكل شخصيّة وهوية أيّ مجتمعٍ من عمل فئاته على تطوير ثقافة ووعيٍ مشتركين، فماذا عن المجتمعات الشرق أوسطيّة الغنيّة بتنوعها؟ لا تزال هذه المجتمعات موحّدةً لا لخدمة هدف مشترك وتطوير وعيٍ متكاملٍ ومشترك، بل هي جماعاتٌ مُلملَمةٌ بحكم اعتبارات كثيرة. وحدتها، لا متجانسةُ العناصر، نابعةٌ من «الحياة الخاملة للجماعات البشريّة هناك»، كما يصفها المُنظّر الأول لفكرة صدام الحضارات برنارد لويس. تنفر، جرّاء القطيعة ومحاولة الارتقاء لإدراك ذاتها وأناها الاجتماعيّة، من التناغم الملاحَظ بين فئات وشرائح المجتمعات الحديثة المتطوّرة، النابع من المساواة واحترام القانون في إطار الإعلاء الاجتماعيّ والنظر إلى المجتمع كقيمة إنسانيّة عُليا. بل إن هذه المجتمعات لا تزال تعيش طفولتها. وهي، علاوةً على ذلك، لا تتقبل فكرة العقد الاجتماعيّ الذي يؤسّس لمجتمع مدنيّ حرّ. كما أنها لا تملك مشروعها التنمويّ الخاصّ أيضاً.

يُعيد بيير جان لويزارد الوحدة المبتذلة أعلاه إلى أن تلك الشعوب ألفت الاستبداد، في ظلّ حكم الأقلية واضطهادها لمجتمع الأغلبية بدعم غربيّ. ويستشهد على ذلك بما حدث في ظلّ أحداث (الربيع العربي)، ويحمّل الغرب عدم وقوفه إلى جانب القوى الديمقراطيّة. ويرى أن الكولونياليّة، وعلى مدى ١٠٠ عام، خلقت بؤساً اجتماعياً وإنسانيّاً وخلقت وحوشاً أحدها داعش.

قد تكون الكولونياليّة هي من خلق داعش وحاضنتها من باب ردّة الفعل، لكن لا بدّ أيضاً من التمعّن في تناقضات مجتمع الأغلبيّة الذي يمكنني تسميته «مجتمع ديناميتيّ حيّ» (أفرادٌ وكتلٌ وطوائف وأعراقٌ مختلفةٌ حدّ التضاد في أسلوب الحياة، والعادات، والانتماءات السياسيّة والعقائديّة... إلخ)، الذي يستطيع خلق مائة داعش في الديمومة. وإن عدم اتفاق شرائحه في ما بينها، والتي هي بعيدةٌ عنه بطبيعة الحال، يُمدّ النظام الشمولي بفرصة تأجيج وترسيخ التناقضات والمحافظة عليها عند هذا الحدّ طيلة فترة حكمه، فيجعل المجتمع كتلةً ترزح تحت وطأة الاستبداد والفقر والجهل، وحتى إن أتيحت له الفرصة للانعتاق لا يعرف كيف يتصرّف.

كما تلاحَظ فيه الفردانيّة المُعطّلة، فئاتٌ اجتماعيّةٌ فاقدة الاعتبار غارقةٌ في الدونيّة بعيدةٌ كلّ البعد عن قيم الحداثة، تعاني الأمرّين جرّاء فرض الهيمنة عبر مؤسّسات مذيلّة بالسلطة (كما حدث في روسيا عقب نجاح الثورة البلشفيّة ١٩١٧م، عندما ظلت الدولة السوفييتيّة تهاجم -بطريقة منظّمة- كلّ المصادر التي يمكن أن تنافسها على السلطة في المجتمع الروسيّ، بما في ذلك الصحافة والأحزاب السياسيّة المعارضة ونقابات العمّال والمشروعات الخاصّة والكنيسة).[1]

يتمظهر البؤس في أشد حالاته وطأةً في حال الأزمات والحروب -كعائقٍ وكقطيعة في آنٍ واحد- وغياب الدولة والمرجعيّة الفكريّة، فتمسي الفئاتُ الاجتماعيّة عبوات ديناميت قد تنفجر في أيّ لحظة ولأهون سبب، معرّضةً للصدام في محاولة تفاعلها مع المستجدّات، وقد تصبح ضحيّة صراعات مُزمنة، طائفيّة أو مذهبيّة أو عرقيّة، انطلاقاً من تغليب كلّ جماعة مصلحتها على المبدأ. وبما أن الاختلاف في حالة الحرب جريمةٌ بتُهم معدّة مسبقاً في مجتمعات جاهلة، أو لدى تنظيمات متطرّفة أقلّها «متهمٌ بالإرهاب»، وكما كان يتمظهر القتل لأيّ دوافع في شكل واجبٍ دينيّ أو قوميّ أو وطنيّ؛

١- فوكوياما، فرنسيس: نهاية التاريخ وخاتم البشر، تر: حسين أحمد أمين، ط١ (القاهرة، مركزالأهرام للترجمة والنشر، ١٩٩٣) ص ٢٦.

فإن تأخر هذه المجتمعات، الذي قد يصل إلى عقود من الزمن، في الخروج من حال الأزمة إلى حال الاستقرار (الديمقراطيّة والتنظيم) واقعٌ لا مناص منه. وهي ضعيفةٌ دون الحاجة إلى إضعافها بالمخططات الدوليّة المزعومة.

ومع بدء الأزمة في سوريا برزت الأزمة القديمة والعميقة (أزمة الهويّة والتمايز) مجدّداً بشكل يعيق التقدم التاريخيّ. بل كيف يمكن الحديث عن التقدم التاريخيّ وهذه القضايا لا تزال تفرض واقعها المتأزّم حتى اليوم، وتستحيل معها دعوات بعض الأطراف إلى الإعلاء الاجتماعيّ إلى دعوة أقلّ ما يمكن أن توصف بالمبتذلة، لأن الجماعات لا تمتلك بعدُ الوعي الكافي لإدراك هكذا حقائق. كما يسهم العائق اللفظيّ في المعرفة في مطّ المقولات والقيم الأخلاقية والتعايش السلميّ والعدالة الاجتماعيّة... إلخ، لتصبح مفرّغة المضمون أو تحوي أكثر مما يراد منها. فأيّ قيمة نظريّة أو عمليّة يمكن أن تستخلص إن تشوّهت مقولة التعايش المشترك إلى «عش كما أريد»؟

لا يمكن وصف الصراع في الشرق الأوسط بالصراع الحضاريّ، رغم أن الحضارة في الخطّ الأوّل للجبهة، كما تروّج نظرية صدام الحضارات لبرنارد لويس وصموئيل هنتغتون، ورغم تشوّه القيم والمعالم الحضارية، ناهيك عن تدمير الإرث التاريخيّ والإثنوغرافيّ لهذه الشعوب والمجتمعات جرّاء الهمجيّة جنباً إلى جنب مع الصراع -وقد يكون التدمير ممنهجاً كما تفعل داعش في المنطقة- بل الصراعات التي تدور في فلك الحرب على الإرهاب، والدفاع عن النفس، والانعتاق من نظامٍ شموليّ وولوج الحالة الديمقراطيّة، كما هو الحال في سوريا.

فالصراع القائم محاولةٌ لإحلال الديمقراطيّة مكان الاستبداد والنظام الشموليّ، في ظلّ تعنّته وفي ظلّ اللا تواصل ولا توافقية الأطراف على كيفية هذا الإحلال. فتعترض المعركةَ نحو الديمقراطيّة صحواتٌ دينيّةٌ (إسلاميّةٌ على سبيل المثال، فالإسلام لديه آيديولوجيا خاصّةٌ في مسائل السياسة والعدالة الاجتماعيّة)، بل أكثر من ذلك، فمحاولات أسلمة الكفاح أو قومنته كانت دلالةً واضحةً على خلخلة العوائق ونوعاً من الارتداد والعودة إلى البحث في التراث عن مرجعيّة متمايزة، بل هو صراع الأصالة والمعاصَرة انطلاقاً من عدم الثقة بالغرب (الذي صوّره برنارد لويس بالعمّ الغنيّ القادم من بلاد بعيدة، غير المحبوب والذي يوّد تقديم المساعدة. في إشارة منه إلى محاولة الغرب تفتيت الشرق الأوسط، وجرّ أبناء مجتمعاته إلى الديمقراطيّة رغم معرفته المسبقة أنهم ليسوا جاهزين لها بعد، لأنهم يعيشون حياةً خاملةً كسولة).[2]

رغم أن ذلك ليس مبرّراً كافياً لعدم تقبّل هؤلاء الديمقراطيّة، أو للتنصّل منها والتنقيب عن ديمقراطيّةٍ على المقاس أو أحاديّة الطرف، فذلك يعني العودة إلى المركزيّة التي تعني الشموليّة في الديمومة.

«تاريخ هذا القرن لا يوفر أيّ أساسٍ يمكننا أن نبني عليه الأمل في أن تغيّر الأنظمة الشموليّة الراديكاليّة من نفسها».[3]

إن موضوع التغيير موضوع مُلحٌّ وإن لم يكن في نيّة الأنظمة الشموليّة، رغم أنها ما انفكّت تعلن عن استعدادها لإجراء الإصلاحات، فهي تسعى بذلك إلى تحوير أنواع من الكفاح إلى مجرّد حراك شعبيٍّ مثاليٍّ مطالب بالإصلاح. ولكن، من جهة أخرى، ليست هناك رؤيةٌ واضحةٌ لماهيّة هذا التغيير من قبل الشعوب أو النخبة أو المعارضة، وقد يتحوّر هذا التعثّر في اكتشاف التغيير المطلوب إلى صراع وحرب أهليّة نتيجة التقوقع واشتداد حدّة النعرات الطائفية وإغفال مخرج الديمقراطية والهدف المشترك.

ففي الحالة السوريّة -مثلاً- يفترض الغرب أن النظام الفيدراليّ هو الأنسب لسوريا، فيما ليس هناك أيّ اتفاقٍ واضح على شكله لدى قوى المعارضة (المنقسمة على نفسها) بين مؤيد للفيدراليّة يتوق إلى الخلاص من نظام شموليّ والبدء بدمقرطة سوريا حسب تصوره، الكرد مثلاً، وبين معارضٍ يرى أنها تقسيمٌ لسوريا، ظناً منه أن الفيدراليّة قد تعني التقسيم، ناهيك عن الأسباب الأخرى).

الانفتاح على الآخر داخلياً ضرورةٌ لهكذا مجتمعات أكثر من غيرها، وإعادة تأسيس العلاقات في إطار وحدة مبنية على احترام حقوق الإنسان، حيث لكل فرد وجماعة خصوصيّتها وشخصيّتها المستقلّة في إطار مشروعٍ مجتمعيٍّ يعتمد النظام اللامركزيّ.

ليست هذه بالمهمّة السهلة؛ إلا أنّها تُعوّل على إلمام الفرد بدوره داخل المجتمع الذي يحميه ويؤمّن له حياةً كريمة، وعلى نوعية الحكم والتراتب الاجتماعيّ، قبل البحث في أمور وأشكال ومشاريع التنميّة الاقتصاديّة والعلميّة.

٢- للمزيد راجع: سولت، د. جرمي: تفتيت الشرق الأوسط، تر: د. نبيل صبحي الطويل، ط١ دمشق، دار النفائس، ٢٠٠٨

٣- فوكوياما، مصدر سابق، ص ٣٧

الرواية.. الحرّيّة، والسؤال:
مجلة صوَر تحاور الروائيّ السوريّ نبيل الملحم

لا بدّ من إزالة هذا النظام، على أن لا ترثه هذه المعارضة

سنواتٌ طويلةٌ وأنا مترددّةٌ في إجراء أيّ حوارٍ صحفيّ.. قبل سنواتٍ، كنت التقيت الروائيّ «حنا مينا» في حوارٍ على ثلاث حلقات. غير أن ثمّة ما تغيّر، وما تغيّر أن قراءتي لروايات «نبيل الملحم» الخمس، وهي على التسلسل: «بانسيون مريم، موت رحيم، حانوت قمر، سرير بقلاوة، آخر أيام الرقص»، استثارت بي سيلاً من الأسئلة. ولم أكن وحدي أحمل هواجس السؤال.. كانت الصديقة التي أعارتني هذه الأعمال تحفّز فيّ الأسئلة أيضاً.

بفعل الحرب، لم تكن وسيلة التواصل مع «نبيل الملحم» مباشرة، كانت تعبر طريقاً واحداً هو المراسلات.. ربما كان على الحوار أن يكون أطول مما بين يدي القارئ الآن، غير أن كثافة الإجابة، ونزق المُجيب، جعلتنا نكتفي بهذا.. لا أشكّ في أنه، ومع كلّ إجابة، ألقى في وجهي ألف سؤال.

حاورته : نسرين الخوري

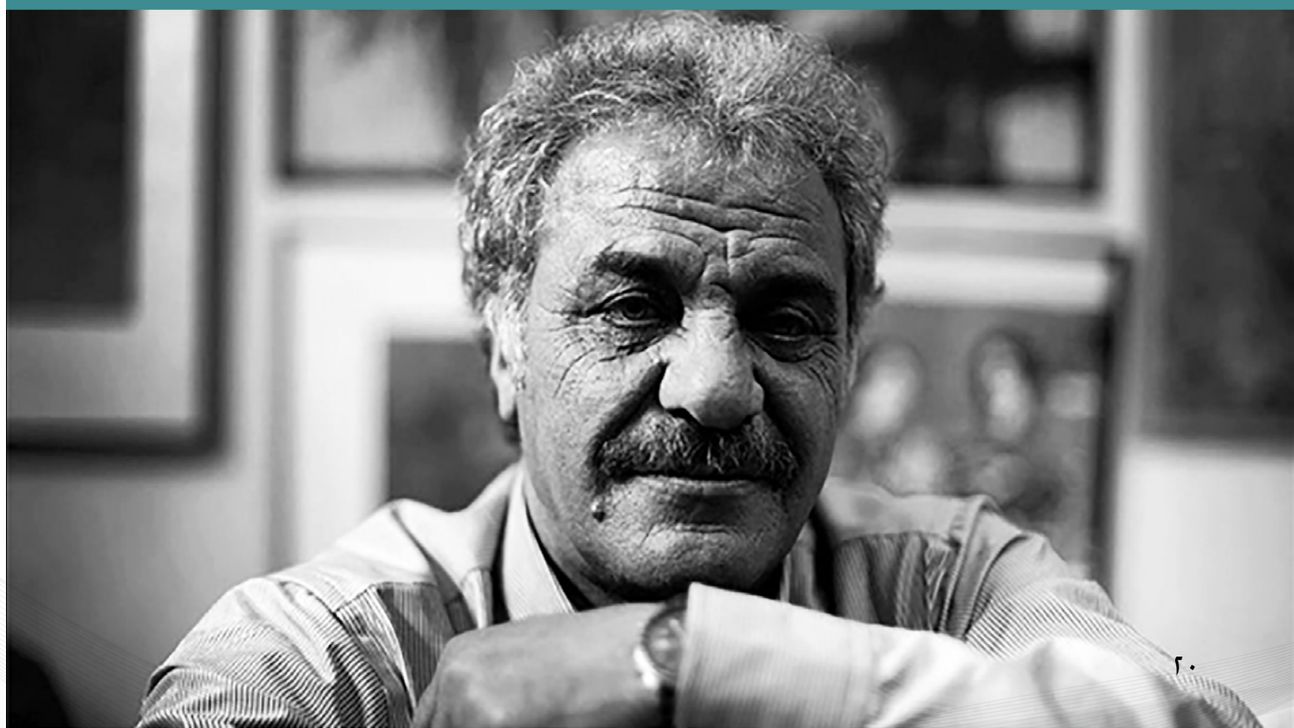

هناك «زحمة» في الإنتاج الروائيّ العربيّ، وكأننا في تظاهرة روائيين؛ هل تلاحظ ذلك؟

أعرف. وطالما تلافيت أن أكون في التظاهرات، أو واحداً من بين متظاهرين، كنت أظن أنني المتظاهر الوحيد. فجر هذا اليوم اكتشفت أنني في التظاهرة، ستسألينني كيف حدث ذلك؟ لقد وجدت نفسي بين مئة روائيٍّ يجيبون عن سؤالٍ واحدٍ في استطلاع رأيٍ لمجلة. ولهذا بالنسبة إليّ معنىً واحد، هو أن الرواية ليست لي وحدي، أنا واحدٌ من متظاهرين، ربما أقلهم قدرةً على إطلاق الهتاف، أو مواجهة الغازات السامّة والرصاص المطّاطي أو الرصاص الحيّ. أنا في الرواية واحدٌ من هذا الحشد الهائل.

مَنْ مِنْ هؤلاء المتظاهرين يلفتك أو تقرأ له؟

كانت صلتي بالمُنتَج الروائيّ سيئةً على الدوام. كنت قارئاً مُتطلّباً، أريد للروائي أن يكتب ما أشاء أنا. وفور أن أفتح الصفحة الأولى من أيّ روايةٍ أجدني طويتها وكففت عن القراءة.. أعترف بأنني قارئٌ لا يُحسن القراءة.

هكذا؟ أستطيع أن أفهم من كلامك أنك لم تقرأ حنا مينا مثلاً؟ أن ليس له تأثيرٌ على منتجك الروائيّ؟ أنا قرأت «حانوت قمر» وأظن أن الكثير من الصلات تجمعها بأعمال هذا الروائيّ.

هل تعطِني مثلاً عما يجمعهما؟

البحر، شخصية المومس.

بحر حنا مينا غير بحري، ومومسه غير مومسي. مع ذلك أقول لك إن حنا مينا هو الذاكرة البعيدة، هو بداية تشكّل الخيال الروائيّ لصبيٍّ صغير.. لقد قرأته في عمرٍ مبكّرٍ جداً، بالإضافة إلى تولستوي وهمنغواي، والقليل من دستويفسكي. أجواء هؤلاء ما زالت كما منامٍ قديم.. من الصعب على طفلٍ يتبوّل في فراشه أن يكبر ويصبح رجلاً دون أن يستعيد حرارة فراشه ذاك.

هل كنت تتبوّل في فراشك؟

أكيد. كنت طفلاً كسولاً، أستغرق في النوم.

أين مكان هذا الطفل في أعمالك؟

في «حانوت قمر»، وربما بوضوحٍ أكثر في «خمّارة جبرا».

تحمل كلّ شخصية في رواياتك فلسفتها الخاصة. لا توجد لديك شخصياتٌ مجانيةٌ أبداً. كلها تحمل عمقاً ما، حتى الانهزامية منها؛ هل تؤمن حقاً أن لجميع الناس رؤىً فلسفيةً في الحياة؟ وما هو المدى الذي أوصلت فيه رواياتك رؤاك الفلسفية الخاصّة؟

أعتبر كلامك هذا ذروة المديح. نعم، ليس من «أهبل» إلا ويحمل شيئاً من سرّ هذا الكوكب. إذا لم نرَ هذا السرّ فالخلل فينا وليس فيه.. نحن الذين لا نرغب في أن نرى، أو لا نستطيع أن نرى. كلّ ما في الأمر أننا لا نجازف برؤيته. استحضار الشخصية الروائية هو مغامرةٌ في حدّ ذاتها. حين تكتب تعطي لنفسك حقّ الإله، وما دمت كذلك عليك أن تكشف سرّ مخلوقاتك.

من أين تستحضر شخصياتك؟ من ذاكرتك مثلاً؟

من ذاكرتين؛ واحدةٌ مُعاشة، وثانيةٌ مأمولة. أحياناً، بل غالباً، من مزج هاتين الذاكرتين.

من أين استحضرت «رحيم» مثلاً؟

من ذاكرتي المأمولة، هو الرجل الذي كنت أحبّ أن أكون.. هذا العجوز الذي انفلت ليستدعي رغباتٍ منسية، رغباتٍ ربما كنا نحملها قبل آلاف السنين، ثم جاء تطوّرنا المشوّه وجعلنا ننساها. ومع ذلك ها أنت تنطقين اسمه وكأنه شخصٌ لصيقٌ بك، ما يعني أنه حياة، أنه موجود، أنه حقيقة.

وأدهم ود. نزار في سرير بقلاوة؟

من أدهم ثمّة حقيقةٌ واحدةٌ هي حكاية القميص.. دخل السجن بقميصٍ فضفاضٍ، وحين ضمر جسده كان عليه تضييق قميصه. أدهم هو مكتشف الإبرة، الآلة العبقرية التي أطلقت روايتي. ونزار بالنسبة إليّ هو الكاشف. هو تلك الشخصية الساخرة، اللاهية، العابثة، التي تكتشف مع كلّ لحظة ترهّل وخواء جلاّديها. أدهم، في بعضٍ منه، حقيقةٌ قبل الرواية، وكذلك نزار، ولكن بعد الرواية باتا حقيقةً روائيةً مستقلةً عن الشخصين اللذين عرفتهما.

هناك ارتباطٌ بالحدث السوريّ في رواياتك الأخرى، كموت رحيم وبانسيون مريم. وهذا سيقودني إلى السؤال: في بحثي عنك، عن مواقفك في السياسة، لم أجد لك مكاناً في تيارٍ أو مجموعةٍ أو حزبٍ أو حتى «تظاهرة»؛ كيف رأيت كلّ الذي يحصل في بلدك؟

رأيته في رواياتي؛ في «بانسيون مريم»، و«موت رحيم»، واستبقته في رواية «سرير بقلاوة»، وأظن أن رؤيتي كانت أكثر نضجاً في رواية «خمّارة جبرا».

إبّان التظاهرات في سوريا، ألم تخرج مع المتظاهرين؟

بلى.. خرجت مع المتظاهرين الشباب.

وما الذي رأيته في تلك التظاهرات؟

رأيت حلماً مُختطَفاً، كنت أعلم أن ثمّة من سيختطف أحلام هؤلاء الشباب. وكنت على حوارٍ مع مجموعاتٍ منهم، أظن أنني

دعوتهم إلى إدارة الظهر للنخب مُسبقة الصنع، لأولئك الذين سيركبون موجاتهم ثم يقودونهم إلى المجزرة ويتاجرون بدمهم. حذّرتهم من أبطال «التوك شو»، ومن أولئك الذين سيهيمنون على ثورتهم، من الذين سيمتلكون المال والإعلام ومفاتيح السفارات، ومن ثمّ يبيعون أحلامهم في سوق اللعبة الإقليمية والدولية.. حذّرتهم من المثقفين حصراً، ومن نجوم الثقافة بتشديدٍ أكثر.. كانوا فتياناً فرساناً، ثم جاء مترهلو الثقافة ليختطفونهم، ومن بعدهم وصلت طلائع بزنس السلاح.. لم تكن تجربتهم تعنيهم على أن يروا ما كان يجب أن يُرى.

الطوفان يرتّب نفسه:

على المستوى السياسيّ المباشر، ماذا كانت النتيجة؟

على المستوى السياسيّ المباشر ثمّة ما يمكن اختزاله بالتالي: «لا بدّ من إزالة هذا النظام، على أن لا ترثه هذه المعارضة». كان هذا موقفي منذ الهتاف الأوّل واللحظة الأولى، وكنت الأكثر عزلةً بسبب هذا الموقف.. كنت وسط نارين يضرمان النار بي، لم أهرب من أيٍّ منهما. ولا أظن أن خمس سنين أو أكثر كذّبتني، كلّ النتائج تقول لي: لقد كنت على حقّ.

وهل أنت سعيدٌ بأنك كنت على حقّ؟

لا.. أبداً، أنا رجلٌ يحب «الخطيئة».. حين أقول إنني كنت على حقّ، تماماً كما لو أكون سعيداً بهدر دم نصف مليون سوريٍّ، وتدمير ثلثي البلاد، ونزوح ما تبقى منهم.. لست أنا من يسعد بأنه كان على حقّ.

ما الذي تراه مستقبلاً؟

أرى أن الطوفان لا بدّ وأن يُرتّب نفسه. كيف؟ لا أعلم، على يد من؟ لا أعلم، نحو أيّ مصير ستذهب البلاد؟ لا أعلم، ولن أجهد نفسي في أن أعلم.

ككاتب متابع ومؤلف لعديد من الكتب والدراسات؛ أين يكمن قصور السياسة العربية في رأيك؟

سؤالٌ صعب. يمكنني اختزال إجابته بكلمتين، في أمراض النُخَبْ وقد ورثت أورام الماضي.. نُخَبٌ مشدودةٌ إلى المقابر لا إلى الحياة، نُخبٌ أعدمت الشراكة مع الناس وتعالت عليهم. باستمرار وعلى الدوام كانت نُخباً ممتلئةً بالفراغ، أو قادمةً من الفراغ. نخبةٌ مسكونةٌ بحمل الشعارات الفضفاضة.. في التجربة السورية، على وجه التحديد، كانت النخب تتجوّل بين ثلاث عقائد هي -بمجموعها- عقائد عابرةٌ للمكان؛ المشروع القوميّ، وكان فضفاضاً حتى انكفأ إلى ما دون القبيلة، ومن ثم التهمه أصحابه، والمشروع اليساريّ، وقد استمدّ مشروعيته من خارج مكانه، ثم بات تابعاً لواحدٍ من مشروعين، القومي أو الإسلاميّ، وأخيراً المشروع الإسلاميّ نفسه، وقد أحلّ أحكام السماء مكان خصوبة الأرض.. دون أن ننسى أن أياً من المشاريع الثلاثة لم يكن صديقاً للناس، كلٌّ منهم كان مشروع نزاعٍ على سلطةٍ أو اندماجٍ بسلطة.. سياسيون بلا سياسة، هذا حال الواقع السياسيّ لبلداننا. هذا، بطبيعة الحال، ليس شتيمة.. هو وصف حال.

على الدوام كانت السخرية تأخذ شيئاً من أعمالك.. من أين تستمدّ كلّ هذه السخرية؟ كيف توصف سخرية نبيل الملحم السياسية؟

أظن أن المادة الأوّلية للسخرية أكثر وفرةً من الطحين في بلادنا، ربما تكون حصاداً يومياً متوافراً في كلّ خطوةٍ نخطوها. سخريتي، إذا كانت سخرية، هي نوعٌ من التقاط المفارقة، أما إذا كانت (التنكيت) فليس هذا هاجسي. السخرية والجنس كلاهما الأصعب.. كيف تحكي الجنس لترفعه إلى مرتبة القيمة، وكيف تسخر إلى اللحظة التي تفرقع فيها خواصرك من الضحك لتكتشف أنك تنتحب.. لا أعرف إذا كنت استطعت الوصول إلى هذا المعادلة.. برأيك أنت، كمحاورة، هل تحققت هذه

المعادلة؟

كثيراً.

هل تجاملينني؟

لا.. أبداً.

إذاً إلى السؤال التالي.

قلق الكتابة ما الذي يبدّده لديك؟

الكتابة.

أعني قبل الكتابة ماذا تفعل؟ سأعيد صياغة السؤال: كيف تكتب؟

مبدئياً بتداعيات المشي. أنا أكتب بأقدامي، أمشي كثيراً ومع المشي يكون التداعي. لا أستطيع الكتابة دون أن يأخذ المكان تفاصيله في ذاكرتي.. لا بدّ من لوكيشن، وإلا سيتجوّل أبطالي في فراغٍ سخيفٍ لا أسمح له أن ينتقص من قيمهم وتكوينهم ونموّهم وتطوّرهم. بعدها أكتب الجملة الأولى، وبعد الجملة الأولى يبدأ العمل الروائيّ بإنجاز نفسه.. يبدأ ليكتب نفسه.

كيف تتعامل مع هاجس تقنية الرواية؟

التشديد على التقنية يُفقد الرواية نزاهتها.. أنا شخصٌ نزيهٌ مع الكتابة. لا أحبّ أن أحدّد مسار جريان النهر بجدران، ما من نهرٍ لا يرسم طريقه، ما أن تضع لنهرٍ جدراناً حتى يستنقع.. يتحوّل إلى طميٍ ووحـل.. أحبّ لأقدام النهر أن لا تتلوّث بوحول التقنية.

هل تُخضع أعمالك الروائية لرقابةٍ ذاتيةٍ قبل أن تدفعها لمواجهة رقابة المجتمع والمقدّسات والدولة؟

ولا للحظة.. ولا لأيّ شكلٍ من أشكال الرقابة؛ لا الرقابة السياسية، ولا محاذير المقدّس، ولا أضع اعتباراً لقارئٍ حين أكتب.. أنا أكتب لأكون حُرّاً، وليس لأنني حُرّ.. لحظة الكتابة هي لحظة الحريّة التي لن أسمح لأحد بالانتقاص منها.. أنا لا أكتب لأبيع منتجاً، فلست عبداً للسوق، ولست أكتب لأرضي قارئاً، فليس هاجسي أن أجمع مريدين ومصفقين. أما عن العنف السياسيّ والرقابيّ فأنا حُرٌّ حتى ولو كنت في فم الغول.

> **كنت أعلم أن ثمة من سيختطف أحلام هؤلاء الشباب، وكنت على حوار مع مجموعات منهم، أظن أنني دعوتهم إلى إدارة الظهر للنخب مُسبقة الصنع، لأولئك الذين سيركبون موجاتهم ثم يقودونهم إلى المجزرة ويتاجرون بدمهم، حذرتهم من أبطال «التوك شو»**

ألم تحدّ الرقابة السياسية من حرّيتك هذه على سبيل المثال؟

ولا للحظة. يعني لأبسّط لك الموضوع.. لو كنت مواطناً سويسرياً وكتبت روايتي لما اتسع هامش الحريّة فيها عن هامش الحريّة الذي أعيشه حتى لو كنت سجيناً.. أنا لا أصدّق حكاية القمع الأمنيّ، القمع يمارَس على من يخاف القمع.. أنا لا أخافه.

ما السرّ؟

السرّ هو أن الكتابة هي ما تشتهيه وليس ما يتاح.. هي ليست بضاعةً تستطيع أن تشتريها أو لا تستطيع. الكتابة فعلٌ متهوّر. بمجرّد أن قلت: سأكتب، هذا يعني إقراراً بأنك رجلٌ متهوّر.

حدّتك في توصيف المشهد السوريّ الحاليّ بكاءٌ عليه أم أملٌ في دفعه خطوة نهوضٍ نحو الأمام؟

حدّتي لأنني حادّ. بكاء عليه؟ لا.. أنا لا أبكي عليه. أما عن نهوضه فقد لا يكون همّي نهوضه. أنا أكتب لأن الكتابة لذة، الكتابة بالنسبة إليّ ليست تبشيراً.. التبشير تركته للكهنة وللصوص الكلام.

إذا طلب منك قارئٌ كتاباً واحداً من كتبك يتعرّف فيه إلى (نبيل الملحم)، بمَ تنصحه؟

لا أنصحه. ولكن إذا قلت لي: أين نضج نبيل الملحم؟ أقول لك في «خمارة جبرا»، التي لم تصدر بعد، وربما في «الله حين يحكي»، الرواية التي أنهيت مسوّدتها الآن.

تسخر دائماً من الفيسبوك وتصفه بتلك (الخرقة الزرقاء). في ظلّ هذا التطور السريع والهائل الذي يغيّر مفهوم القراءة والكتابة ويخلق مفاهيم جديدةً للجيل الجديد؛ كيف ترى طريق الكلمة الآن؟

هناك إفراطٌ في الاستخفاف بالكتابة. ومع ذلك فالإفراط في الكتابة أطيب من الإفراط في الحجر عليها.. على ما في هذه الخرقة الزرقاء من ابتذالات، فهي أطيب من الهمس الخائف الذي عاشته أجيال ما قبل الثورة الرقمية.

سؤالٌ أخير.. إلى أين ستنتهي؟

ككاتبٍ أم ككائنٍ بيولوجيّ؟

كلاهما.

ككاتبٍ لا أعتقد أنني سأُستنزَف. ككائنٍ بيولوجيٍّ سأنتهي إلى الغبار، لست أفضل حالاً من جنكيز خان.

عدسة: سردار ملا درويش - الحسكة

عدسة: مالك الرجب/ الحولة - حمص

عدسة: محمد سيدو - عفرين

عدسة: جيان حج يوسف / تل كوجر - الحدود العراقية

الاختفاء القسريّ في إدلب
وسيلةٌ للانتقام من الأهالي وجمع الأموال

دارين الحسن

أدّى الصراع في سوريا إلى كثيرٍ من المآسي والمصاعب التي يمرّ بها الشعب السوريّ يومياً على يد نظامه المستبد قتلاً ودماراً وتشرّداً، ولكن الأصعب من ذلك كله هو سلب الحرية التي تعدّ أغلى ما يملكه الإنسان. إذ إن عناصر النظام والموالين له يمارسون الإخفاء القسريّ الذي يعدّ أحد أقسى أشكال انتهاكات حقوق الإنسان وأكثرها لا إنسانية، فهم يرفضون الاعــتراف بحرمان الشخص من حرّيته ويخفون مصيره ومـكـان وجــوده مما يحرمه من حماية القانون.

واتهمت منظمة العفو الدولية النظام السوريّ بجني الأربـاح من عمليات الإخفاء القسريّ المنتشرة في سوريا. أما في محافظة إدلب، وغيرها من المناطق الخاضعة لسيطرة المعارضة، فقد اتخذ النظام عمليات الخطف أداةً لسحق المعارضة ونوعاً من الانتقام من الأهالي، بالإضافة إلى الحصول على المال، مستغلاً أن سكان المحافظة يضطرّون أحياناً إلى السفر والمرور بحواجز قوّاته، فيختفي بعضهم أثناء الطريق وتنقطع أخباره عن أهله وذويه، إلى حين تدخل الوسطاء لدفع المال واسترجاع المختفي.

يستغلّ النظام الرغبة العارمة لدى أسر المفقودين لمعرفة مصير أولادهم وإنقاذهم وتخليصهم، ما يجبر بعض الأسر الفقيرة على استدانة مبالغ كبيرةٍ أو بيع ممتلكاتها من أجل ذلك.

أبو محمد (٤٥ عاماً) من ريف إدلب، والد الشاب الجامعيّ محمد الذي تم خطفه من سكنه الجامعيّ في ظروفٍ غامضة، يقول: «حاولت كثيراً معرفة مكان ولدي، وأنفقت أموالاً كثيرةً لمعرفة أيّ معلوماتٍ عنه، وما إذا كان على قيد الحياة أم لا، ولكن دون جدوى. تلقيت وعوداً كثيرةً لإخراجه من السجن أو حتى سماع صوته، ولكنني اكتشفت بعد ذلك أنه نوعٌ من الحيلة والخداع لابتزازي مالياً. وأنا أتجرّع مرارة الانتظار بكثيرٍ من اليأس للحصول ولو على معلومةٍ واحدةٍ تثلج صدري وتريح نفسي المعذّبة».

بالإضافة إلى ذلك يقاسي ضحايا الاختفاء متاعب جمّةً تودي بهم إلى الموت أحياناً، لأنهم يعيشون في ظروفٍ قاسيةٍ وغير إنسانية، إذ يتمّ وضعهم في غرفٍ صغيرةٍ ومكتظةٍ فتتفشى بينهم الأمراض دون الحصول على العلاج، ويتعرّضون لكلّ أنواع التعذيب. وصاحب الحظ السعيد بينهم من يخرج من سجنه لتلاحقه لعنة الأمراض النفسية في ما تبقى له من حياة.

أحمد شنيرة (٣٧ عاماً) من مدينة معرّة النعمان، كان ضحيةً من ضحايا الاختفاء القسريّ وكتبت له النجاة فغادر البلاد مباشرةً إلى تركيا خوفاً من اعتقاله ثانيةً، يتحدّث بحزنٍ عن فظاعة ما مرّ به وما شاهده داخل المعتقل: «اعتقلت، بتهمة الإرهاب، أثناء سفري إلى مدينة إدلب قبل تحريرها. وأودعت في زنزانةٍ صغيرةٍ، برفقة خمسين آخرين. وكنا نعاقَب دائماً عن طريق الضرب بالعصيّ وبالقضبان المعدنية، والتعليق في الهواء والصدمات الكهربائية. فارق الكثير من زملائي الحياة أثناء التعذيب أو نتيجة الأوضاع المزرية، وهناك من أصيب بالهيستيريا جرّاء الضرب على الرؤوس بالعصيّ».

ويؤكد أحمد أن حرمان الإنسان من رؤية ضوء النهار ونور الشمس، بشكلٍ مستمرٍّ وطيلة سنوات، من أصعب ما يعاقَب به الإنسان على الإطلاق، وأنه ورفاقه كانوا يتمنون الموت في مواقف كثيرة.
وقدّرت الشبكة السورية لحقوق الإنسان أعداد المختفين قسرياً في سجون النظام السوريّ بـ٦٥ ألف شخص، بينهم ٣٠٥٠ مختفياً من محافظة إدلب، أغلبهم من المعارضين السلميين أو ناشطي حقوق الإنسان أو الأطباء أو العاملين في مجال توفير المساعدات الإنسانية. كما تكثر حالات اختطاف شخصٍ لمجرّد أن له قريبٌ مطلوبٌ للنظام، وهو ما حصل مع الضابط المنشقّ عن صفوف جيش النظام عامر، من قرية جرجناز التابعة لمعرّة النعمان، حين تمّ اعتقال أخيه على الحدود السورية اللبنانية.

يقول السيد عامر: «أعلنت انشقاقي عن النظام بتاريخ ٢٠١٢/٣/٥، لما رأيت من ممارساته الوحشية في وجه شعبه. وبعد حوالي سنةٍ اعتقل أخي أثناء عودته من لبنان إلى سوريا. أنا أتعذّب كثيراً من أجله، وأجهل المصير الذي آل إليه، فها أنا أنعم بالحرية ليدفع أخي ثمن حرّيتي. أتمنى أن أسلم نفسي للنظام من أجل تخليصه من ذنبٍ لم يقترفه، ولكنني لا أعلم إن كان حياً أم ميتاً، ولا أضمن إطلاقاً سراحه إن فعلت. كم أتمنى أن أطلب منه أن يسامحني».

ويندّد السيد عامر بكلّ من يدعم النظام السوريّ في ممارساته ضد الأبرياء والمدنيين، ويطلب من جميع عناصر الجيش الانشقاق عنه.

أما اعتقال النساء فله وقعٌ مؤلمٌ عند العائلات السورية التي تعدّه مصاباً جللاً وفضيحةً أهون منها الموت، لأن الجميع يعلم الاستغلال الجنسيّ الذي قد تتعرّض له النساء من السجانين القذرين الذين تجرّدوا من الإنسانية وتحوّلوا إلى وحوشٍ لا ترحم. وهذا ما قالته والدة إحدى المعتقلات، وهي طالبةٌ جامعيةٌ تم اعتقالها على أحد حواجز قوات النظام: «أحبّ ابنتي كثيراً ولكنني أتمنى لها الموت فأعلم أنها ذهبت إلى رحمة ربها بدلاً من التفكير الدائم المتواصل والأفكار السوداء التي تراودنا بعد أن وقعت في أيدي ظلامٍ لا يرحمون ولا يحسبون للأعراض والحرمات حساباً».
بالإضافة إلى أن الاختفاء القسريّ يؤدّي إلى تفكّك المجتمع وانتشار الفاقة والحاجة، عندما تفقد الزوجة والد أطفالها وربّ أسرتها ولا تعلم مصيره أو مدّة سجنه، فتعيش وحيدةً على أمل سماع خبرٍ مفرحٍ بأن يعود الغائب يوماً إلى بيته وأسرته.

بالرغم من كلّ المصاعب التي يمرّ بها أبناء الشعب السوريّ، ورغم قسوة ومرارة الواقع المعاش، يظلّ المحتجزون وراء القضبان الحديدية هم الأكثر تضرّراً في حكاياتٍ واقعيةٍ قاسيةٍ جداً، لأن مصيرهم يكتنفه الغموض ويعيش ذووهم بين الخوف والرجاء. ولذلك فإن المعتقلين والمختفين قسرياً هم الضحايا الأكبر في الحرب السورية الدائرة.

أطفال سوريا بين قتلٍ ودمارٍ.. ونزوحٍ قاتل

شيار خليل

مع وصول النزاع في سوريا إلى عامه الخامس فإن واحداً من بين كلّ ثلاثة أطفالٍ سوريين لا يعرف إلا الأزمة، وقد تربّى جيلٌ جديدٌ على العنف وصوت الرصاص والقصف من كلّ الجهات، وبات مستقبل أطفال سوريا غامضاً مرهوناً بعدد الطائرات التي تحوم فوق أراضيها أو القذائف التي تقصف مدارسها ومشافيها.

حوالي ٣,٧ مليون طفلٍ -أي ثلث أطفال سوريا- ولدوا منذ بدء النزاع في البلاد، ولم يعرفوا سوى العنف والخوف والنزوح، بحسب تقريرٍ صادرٍ عن اليونيسف. ويشمل هذا الرقم أكثر من ١٥١ ألف طفلٍ ولدوا كلاجئين منذ عام ٢٠١١.

وتقدّر اليونيسف أن ما مجموعه ٨,٤ مليون طفل -أي أكثر من ٨٠ في المائة من الأطفال في سوريا- قد تأثروا بسبب النزاع، سواء في داخل البلاد أو كلاجئين في الدول المجاورة.

وفي لقاءٍ لمجلة صَور مع الدكتور بيتر سلامة، المدير الإقليميّ لليونيسف لمنطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، قال: «أصبح العنف في سوريا أمراً شائعاً، فطال البيوت والمدارس والمستشفيات والعيادات والحدائق العامة والملاعب ودور العبادة». وأضاف: «يعيش ما يقرب من ٧ ملايين طفلٍ في فقر، مما يجعلهم يعانون الخسارة والحرمان في طفولتهم».

وبحسب التقرير «لا مكان للأطفال» تحققت اليونيسف من حدوث ما يقرب من ١٥٠٠ من الانتهاكات الجسيمة في حقّ الأطفال في عام ٢٠١٥، أكثر من ٦٠ في المائة منها حالات قتلٍ وتشويهٍ نتيجة استخدام الأسلحة المتفجّرة في المناطق المأهولة بالسكان، وقد قُتل أكثر من ثلث هؤلاء الأطفال أثناء وجودهم في المدرسة أو في طريقهم منها أو إليها.

يكمل سلامة: «وقد تضاعف عدد اللاجئين في البلدان المجاورة لسورية ١٠ مرّاتٍ اليوم مقارنةً مع ما كان عليه عام ٢٠١٢، علماً أن نصف هؤلاء اللاجئين هم من الأطفال. كما أن هناك أكثر من ١٥ ألف طفلٍ غير مصحوبين ومنفصلين عن ذويهم عبروا الحدود السورية».

ويضيف الدكتور سلامة: «كبر الملايين من الأطفال بسرعةٍ هائلةٍ وقبل أوانهم بسبب سنوات الحرب الخمس».

تسرّبٌ من المدارس وإجبارٌ للأطفال على العمل المبكر؛ كله من نتائج الحرب الدائرة. عن ذلك يقول سلامة: «بينما تستمرّ الحرب أصبح الأطفال يخوضون حرب الكبار. كما يستمرّ تسرّب الأطفال من المدرسة، والعديد منهم يُجبرون على العمل، في حين أن الفتيات يتزوّجن في سنٍّ مبكّرة».

في السنوات الأولى من النزاع -حسب بيتر سلامة- تراوحت أعمار أكثرية الأطفال الذين جُنّدوا للقتال من قبل القوّات والجماعات المسلحة بين ١٥ و١٧ سنة. وكانت أطراف النزاع تستخدمهم -بصورةٍ أساسية- في أعمال الدعم بعيداً عن جبهات القتال. إلا أنه، ومنذ عامٍ ٢٠١٤، قامت جميع أطراف النزاع بتجنيد أطفالٍ في سنٍّ أصغر من ذلك بكثير، إذ لا تزيد أعمار بعض الأطفال عن سبعة أعوام، وغالباً دون موافقة الوالدين.

إن أكثر من نصف حالات الأطفال الذين جُنّدوا للقتال في عام ٢٠١٥ -والتي

تحققت اليونيسف منها كما أوضحت- كانت لأطفالٍ تقلّ أعمارهم عن ١٥ سنة، مقارنةً مع أقلّ من ٢٠ في المائة في عام ٢٠١٤. يتلقى هؤلاء الأطفال التدريب العسكريّ، ويشاركون في العمليات القتالية، أو يقومون بأدوارٍ تهدّد حياتهم في جبهات القتال، بما فيها حمل وصيانة السلاح وحراسة الحواجز العسكرية وعلاج وإجلاء جرحى الحرب. كما تستخدم أطراف النزاع الأطفال للقتل، بما في ذلك كمنفذين لعمليات الإعدام أو قنّاصة.

وبحسب التقرير فإن أحد أكبر تحديات النزاع هو حصول الأطفال على التعليم. وقد وصلت معدلات الالتحاق بالمدارس داخل سوريا إلى الحضيض. وتشير تقديرات اليونيسف إلى أن أكثر من ٢,١ مليون طفلٍ داخل سوريا، و٧٠٠ ألفٍ في البلدان المجاورة، هم خارج المدرسة. واستجابةً لذلك أطلقت اليونيسف، مع مجموعةٍ من الشركاء، مبادرة «لا لضياع جيل»، التي تلتزم بإعادة الأطفال إلى التعليم وتوفير فرصٍ للشباب.

ويختتم الدكتور سلامة قوله: «لم يفتِ الوقت بعدُ ليكون أطفال سوريا بخير، فلا زال لديهم الأمل في عيشِ حياةٍ مليئةٍ بالكرامة والإمكانية، ولا زال الأطفال يعتزّون بتحقيق أحلامهم في أن يعمّ السلام».

ويدعو التقرير المجتمع الدوليّ إلى اتخاذ خمس خطواتٍ حاسمةٍ لحماية جيلٍ حيويٍّ من الأطفال: وضع حدٍّ لانتهاكات حقوق الطفل؛ رفع الحصار وتحسين وصول المساعدات الإنسانية داخل سوريا؛ تأمين ١,٤ مليار دولارٍ أمريكيٍّ في عام ٢٠١٦ من أجل حصول الأطفال على التعليم؛ استعادة كرامة الأطفال وتعزيز رفاهيتهم النفسية؛ الالتزام بتعهدات التمويل.

وقد حصلت اليونيسف على ٦ في المائة فقط من التمويل المطلوب في عام ٢٠١٦ لدعم الأطفال في سوريا والأطفال اللاجئين في البلدان المجاورة.

ففي داخل سوريا تم تزويد أكثر من ٧,٩ ملايين من الناس بالمياه الصالحة للشرب، إضافةً إلى جولتين من حملات التلقيح ضد شلل الأطفال وصلت إلى أكثر من ٢,٩ مليون طفل، وبعدها لم يتمّ الإبلاغ عن حالاتٍ جديدةٍ من شلل الأطفال في سوريا منذ كانون ثاني ٢٠١٤. كما تمكّن أكثر من ١ مليون طفل -بمن في ذلك من يقيمون في المناطق التي يصعب الوصول إليها- من الحصول على المواد التعليمية من خلال طباعة وتوزيع الكتب المدرسية، في وقتٍ كانت الطباعة فيه غير ممكنةٍ محلياً بسبب تدمير البنية التحتية. كما قدّمت اليونيسف، في الوقت نفسه، الدعم النفسيّ لحوالي ٨٤١ ألف طفل.

أما في دول الجوار فقامت اليونيسف وشركاؤها بتوفير المياه الصالحة للشرب والمياه لأغراض الاستعمال المنزليّ لأكثر من ٢,٥ مليون شخص، وتمّ تلقيح أكثر من ١,٦ مليون طفلٍ تحت سنّ الخامسة ضد شلل الأطفال، ومساعدة أكثر من ٦٣٠ ألف طفلٍ لاجئٍ على الانخراط في التعليم الرسميّ، وتقديم خدمات الدعم النفسيّ والاجتماعيّ لأكثر من ٣٧٧ ألف طفل، إضافةً إلى تزويد حوالي ١٨٤ ألف طفلٍ دون سنّ الخامسة بالمكملات الغذائية المتعددة والمغذيات الدقيقة بما في ذلك فيتامين (أ)، وإيصال لوازم الشتاء -مثل البطانيات والملابس والتدفئة والنقد والقسائم- إلى أكثر من ١٣٩ ألف طفل.

وتعبّر اليونيسف عن هلعها من تقارير في الفترة الأخيرة عن هجماتٍ على أربع مرافق صحيةٍ في سوريا؛ من بينها اثنان تقوم اليونيسف بدعمهما، أحدها مشفىً للأمومة والطفولة، إذ وردت تقارير عن مقتل أطفالٍ وإخلاء آخرين من المشفى. وقد حدثت اثنتان من الهجمات في إعزاز بحلب، بالإضافة إلى اثنتين في إدلب. وتشير التقارير إلى أن المشفى قد هوجم أربع مرّات. ووردت تقارير عن هجماتٍ على مدرستين في إعزاز ومقتل ستة أطفال. وتقوم اليونيسف حالياً بجمع المزيد من المعلومات لتوثيق هذه الحالات ومعالجتها. كما أن ثلث المشافي ورُبع المدارس في سوريا خارج العمل؛ وأكثر من ٥ آلافٍ منها لا يمكن استخدامها.

المحاسبة أساسيّةٌ لمكافحة ثقافة الإفلات من العقاب

د. نائل جرجس

تعدّ ثقافة الإفلات من العقاب، التي تنتشر بخاصّةٍ في الدول التسلطية، من أهمّ الأسباب المؤدّيةً إلى تـردّي أوضـاع حقوق الإنسان وانتشار الانتهاكات الممنهجة والجسيمة التي ترقى إلى مستوى جرائم ضد الإنسانية، فضلاً عن الشعور بالظلم لغياب العدالة، وهو ما يمكن أن يؤدّي إلى احتجاجاتٍ شعبيةٍ كما حدث في الحالة السورية. سنسلّط الضوء في هذه المقالة على قضية الإفلات من العقاب في سوريا، سواء أكان في التشريعات السورية الحالية أو في الواقع العمليّ، مع الإشارة في الختام إلى ضرورة إيلاء هذه القضية أهميةً قصوى، ولا سيّما في إطار الحلّ السياسيّ المزمع للأزمة السورية.

يبدو لأيّ مراقبٍ للأحداث التي شهدتها الساحة السوريةً خلال الأعـوام الخمسة المنصرمة أنّ أحد أهمّ أسباب تفجّر الأوضاع في سوريا وتدهورها هو تكريس ثقافة الإفلات من العقاب. فلم يُحاسَب أيٌّ من المسؤولين عن سفك الدم السوريّ في بداية الاحتجاجات في مدينة درعا، ولا سيّما عاطف نجيب، ابن خالة الرئيس السوريّ، على الرغم من تحميله المسؤولية شخصياً عن الانتهاكات الجسيمة المرتكبة في تلك الفترة. كما تستمرّ كافة أطـراف النزاع في سوريا في ارتكاب الجرائم ضد الإنسانية وجرائم الحرب في ظلّ غياب أيّ ملاحقاتٍ قانونيةٍ في حقّ المسؤولين، سواء أكان على الصعيد الوطنيّ أو الدوليّ، وهو ما يحفزهم على الاستمرار في ذلك دون أيّ رادعٍ قانونيٍّ أو حتى أخلاقيّ.

تعود ثقافة الإفلات من العقاب في سوريا إلى عقودٍ طويلةٍ اعتُمدت خلالها تشريعاتٌ تُعطي حصانةً لرجال الأمن ضدّ الملاحقة القضائية، أو حتى نقص التشريعات اللازمة لملاحقة المجرمين ومحاكمتهم. فيضمن المرسوم التشريعيّ رقم /١٤/ تاريخ ١٩٦٩/١/١٥ الحصانة لأتباع أجهزة المخابرات على الجرائم المرتكبة أثناء تأديتهم الخدمة. فقد نصّ هذا المرسوم، الذي تضمّن إحداث إدارة المخابرات العامة، في مادته /١٦/، على أن: **(يشكّل في إدارة المخابرات العامة مجلسٌ لتأديب العاملين فيها أو المنتدبين أو المعارين إليها. ولا يجوز ملاحقة أيٍّ من العاملين في الإدارة عن الجرائم التي يرتكبونها أثناء تنفيذ المهمات المحدّدة الموكلة إليهم أو في معرض قيامهم بها إلا بموجب أمر ملاحقةٍ يصدر عن مدير الإدارة)**. كما عزّزت المادة الرابعة من المرسوم رقم /٥٤٠٩/ لعام ١٩٦٩ من حصانة المنتمين إلى إدارة المخابرات، فقد جاء فيها:

(لا يجوز ملاحقة أيٍّ من العاملين في إدارة المخابرات العامة أو المنتدبين أو المعارين إليها أو المتعاقدين معها مباشرةً أمام القضاء في الجرائم الناشئة عن الوظيفة أو في معرض قيامه بها قبل إحالته على مجلس التأديب في الإدارة واستصدار أمر ملاحقةٍ من قبل المـديـر. ويبقى استصدار أمـرٍ الملاحقة واجباً حتى بعد انتهاء خدمته في الإدارة).

ويتبيّن بشكلٍ واضحٍ أنّ هذه المواد تكرّس حماية العاملين في إدارة المخابرات العامة من أيّ مساءلةٍ قضائيةٍ عن الجرائم التي قد يرتكبونها، ما يفتح الباب واسعاً أمام انتهاكاتٍ جسيمةٍ لحقوق الإنسان ومخارج مفتوحةٍ لـلإفـلات مـن العقاب بموجب تشريعاتٍ تضفي الحصانة على كلّ ما قد يعزى إليهم من جرائم.

واستمرّ استصدار المراسيم المكرِّسة لحصانة الأجهزة الأمنية بعد وصول بشار الأسد إلى السلطة عام ٢٠٠٠. وتمثّل أبرزها في المرسوم رقم /٦٤/ لعام ٢٠٠٨ الذي حظّر صراحةً ملاحقة مرتكبي الجرائم من عناصر الأمن دون موافقة رؤسائهم. أما المرسوم رقم /٥٥/ الصادر في ٢١ نيسان/أبريل ٢٠١١، أي مباشرةً بعد قرار رفع حالة الطوارئ، فقد أتـاح لأجهزة الأمـن إمكانية التحفظ على الظنينين لمـدةٍ تصل إلى الستين يوماً، لا تعترف خلالها بوجود المعتقلين لديها.

وبالتالي يكون الموقوفون خلال هذه المدّة في معزلٍ عن العالم الخارجيّ، وضحيةً لأشدّ أنواع الانتهاكات بما فيها الاختفاء القسريّ والاعتقال التعسفيّ والتعذيب الجسديّ والنفسيّ.

ولا تتاح لذوي الضحايا، أو للضحايا أنفسهم في حال خروجهم أحياء من أقبية الأجهزة الأمنية، إمكانية متابعة الجناة من عناصر الأمن، ليس فقط في ظلّ ترسانة التشريعات المكرِّسة للحصانة لهم، إنما أيضاً لأسبابٍ أخرى أبرزها غياب هيئاتٍ قضائيةٍ مستقلةٍ وحيادية، وآلياتٍ فعّالةٍ كفيلةٍ بتحقيقٍ هكذا ملاحقات، فضلاً عن الخشية من الإجراءات الانتقامية التي يمكن أن يتعرّض لها مقدّمو الشكاوى. وفي هذا الإطار تبرز الأهمية القصوى لإجراء التعديلات القانونية اللازمة، في إطار أيّ حلولٍ سياسية، بما يسهم في التمكين من تحريك الدعاوى في حقّ المسؤولين عن الانتهاكات، للحدّ من ارتكاب الجرائم، وملاحقة الفاعلين، وبالتالي مكافحة ثقافة الإفلات من العقاب.

بالتأكيد إنّ للعفو دوراً أساسياً لتحقيق مصالحةٍ وطنيةٍ سوريةٍ قادرةٍ على نقل البلاد من حالة الحرب إلى السلم الأهليّ والمدنيّ ووقف إراقة الدماء، إلا أنه ينبغي أن تُدرس الآثار السياسية والاجتماعية لأيّ قانونٍ قبل اعتماده، وكذلك اعتباره جزءاً أساسياً من مشروع العدالة الانتقالية الذي يجب أن يتضمّن تعويض الضحايا من الناحيتين المادية والمعنوية، والكشف عن الحقيقة، وضمان حدٍّ أدنى من محاسبة المتورّطين في الجرائم على مستوىً واسعٍ وممنهج.

سوق الأوراق الماليّة في سوريا
والهدف المرسوم له

سامر كعكرلي

لا تكاد تخلو صحيفةٌ من الصحف السورية الحكومية أو الخاصّة من خبرٍ عن تداولات سوق الأوراق المالية، أو ما يعرفٌ ببورصة دمشق. سواء عن الحجم المـاليّ لتداول هذا السوق، أو عن عدد الصفقات التي تمت. فها هي صحيفة الثورة، في عددها الصادر بتاريخ ٢٠١٦/٣/٢٣، تنشر تحت عنـوان «بـعـد عطلة الأيـام الخمسة... ٢٤ مليون ليرة تداولات بورصة دمشق». وعلى الرغم من المحاولة الواضحة لتلميع صورة البورصة إلا أن الصحيفة نسيت أن المبلغ المذكور، بحسابه على الدولار الأمريكيّ حسب السعر الرسميّ، لا يتجاوز الخمسين ألف دولار. وهو مبلغٌ قد يعادل تكلفة ليلةٍ واحدةٍ في أحد فنادق السبع نجوم، ولشخصٍ واحد.

إذاً، ما هو المبرّر الحقيقيّ للنظام للتركيز على عمل بورصة دمشق؟ بالطبع، يريد النظام السوريّ ووسائل إعلامه من هكذا أخبارٍ أن يقولا إن الاقتصاد السوريّ ما زال صامداً على الرغم من سنوات الحرب الخمس. وطبعاً دون النظر إلى التفاصيل الصغيرة، مثل انهيار العملة السورية وفقدانها أكثر من ٩٠٪ من قيمتها، ودون النظر إلى تراجع الناتج المحليّ الإجماليّ بأكثر من ٤٠٪، حسب تقديرات صندوق النقد الدولي. كلّ ذلك لا يهمّ، المهم بيان صورة البورصة التي تعمل وتُتداول فيها الأسهم.

وبذلك تكون بورصة دمشق، والقائمون عليها، ما زالوا يسيرون على الخط المرسوم لهم في دعم النظام.

فما هو الخط المرسوم لتلك السوق؟

ليست فكرة البورصة في سوريا من إبداعات هذا النظام، بل هي موضوعٌ قديم. إذ يذكر بعض تجار دمشق ما كـان يطلق عليه «سـوق الـبـورص»، الـذي يعود

إلى ثلاثينيات القرن الماضي، وكان يقع بجانب سوق الحميدية. كما يتذكرون الشركات المساهمة التي كانت في سوريا، مثل مصنع دمّر للإسمنت، الذي أُسّس عام ١٩٣٠، وشركة المغازل وشركة الكونسروة وشركة التبريد... إلخ، حتى بلغ عدد الشركات المساهمة حوالي ٣٠ في عام ١٩٣٣. كما يتذكر التجار أن الأسهم في سوريا، وتحديداً في دمشق وحلب، كانت تستخدم كهدايا بين المواطنين، وأن بعض القضاة الشرعيين قضى بشراء الأسهم للأيتام القُصّر لأجل الحفاظ على أموالهم.

صحيحٌ أن نظام الوحدة مع مصر هو الذي أمّم الشركات المساهمة التي كانت رافعة الاقتصاد السوريّ، إلا أن النظام السوريّ استكمل ما بدأه نظام الوحدة ولكن بطريقةٍ أكثر عدوانيةً توحي للمراقب أن هذا النظام قد جاء إلى الحكم وليس أمامه سوى هدفٍ واحدٍ هو تدميرٌ ممنهجٌ للاقتصاد السوريّ.

في عام ٢٠٠٠، عندما أصبح بشار الأسد رأساً للنظام، ذكر في خطاب القسم أن سوريا ستشهد انقلاباً اجتماعياً واقتصادياً حقيقياً، وأنه سينفتح على اقتصاد العالم، بحيث يخطو خطواتٍ اقتصاديةً تنعش البلاد بعد فترة الجمود الاقتصاديّ الذي دام أكثر من ثلاثين عاماً. ولم يكن الشعب السوريّ يدري أن خطوات الانفتاح الاقتصاديّ التي سيتخذها نظام الوريث ستكون سبب تراكم الثروة في أيدي رجالات النظام أنفسهم.

ولتنفيذ التعهد الذي أطلقه بشار كان لا بدّ من قراراتٍ حزبية، فجاء المؤتمر القطريّ العاشر لحزب البعث الحاكم، والذي عُقد في حزيران ٢٠٠٥، ليقرّر انتقال البلاد من الاقتصاد الاشتراكيّ الموجّه إلى اقتصاد السوق، مع إلصاق كلمة الاجتماعيّ كنوعٍ من خديعة الطبقات المتوسطة والفقيرة بأن هذا التحوّل سيكون لصالحهم.

وكعادة النظام السوريّ عند إحداثه أيّ تغييرٍ في سياسةٍ اقتصادية، يحتاج إلى شخصٍ يوضع في الواجهة لتلقى عليه المسؤولية في حال فشل التغيير الجديد. ووجد النظام ضالته في شخصٍ ليبراليٍ درس في بريطانيا، هو «عبد الله الـدردري»، فتمّ تكليفه بمهامّ نائب رئيس مجلس الوزراء للشؤون الاقتصادية، في بادرةٍ هي الأولى من نوعها بتسليم رجلٍ غير بعثيٍّ هذا المنصب منذ انقلاب البعث.

بعد هذا المؤتمر بدأت حزمةٌ من القوانين بالصدور، مثل قانون الشركات رقم /٣/ لعام ٢٠٠٨، والقانون رقم /٤١/ لعام ٢٠٠٧، القاضي بإحداث هيئة الضرائب والرسوم، وغيرهما من المراسيم. مع العلم أن القانون رقم /٢٨/، الذي سمح بإحداث المصارف الخاصة، لم ينتظر تغيّر شكل الاقتصاد، فقد صدر في عام ٢٠٠١. أما بالنسبة إلى البورصة فقد صدر القانون رقم /٢٢/، القاضي بإحداث هيئة الأوراق والأسواق المالية السورية، بتاريخ ٢٠٠٥/٠٦/١٩.

بعد إصدار البنية التشريعية وتأمين المقرّ (بإجبار أحد المغتربين على التبرّع بإنشاء مقرٍّ للسوق، بتكلفة تبلغ /٧٥٠/ مليون ليرة سورية، مقابل تسهيل أعماله العقارية التي أطلقها في محافظة ريف دمشق)؛ افتتحت بورصة دمشق لـلأوراق المالية في ٢٠٠٩/٣/١٠ بمظاهر احتفاليةٍ عمد إليها النظام، ربما لإخفاء الوجه الحقيقيّ لهذه البورصة التي أتت لتغطية مصالح رجال الاقتصاد المرتبطين به عضوياً، والذين ظهروا كرجال اقتصادٍ في عهده مبعدين رجال سوريا الاقتصاديين الحقيقيين. وعند الافتتاح كانت هناك /٦/ شركاتٍ مساهمة (خمسة مصارف وشركة نقل). وكان من المفاجئ عدم إدراج شركة الهاتف

الخليوي «سيريتل» التي يملكها ابن خال الرئيس «رامي مخلوف»، مع العلم أنها طرحت أسهمها للبيع منذ عام ٢٠٠٧، أي قبل انطلاق عمل البورصة. وكانت الحجة حينئذٍ أن شركتَي الخليويّ العاملتين في سوريا غير جاهزتين قانونياً للدخول في البورصة.

بعد افتتاح عمل بورصة دمشق توالت عمليات إدراج أسهم الشركات المساهمة فيها، حتى بلغ العدد /٢٠/ شركةً موزّعةً على النحو التالي: /١٢/ مصرفاً، /٣/ تأمين، /١/ زراعية، /١/ صناعية، /٢/ خدمات.

وبالنظر إلى هذه الشركات يرى المراقب أنها لا تمثل حقيقة الاقتصاد السوريّ القائم -بالدرجة الأولى- على الزراعة والصناعة اللتين تشكلان حوالي نصف الناتج المحليّ الإجماليّ، بينما لا يساهم قطاع المال والتأمين سوى بـ٤٪ من إجمالي الناتج المحليّ في عام ٢٠٠٩.

وهـذا مرجعه إلى أن مفهوم البورصة يرتبط أولاً بوجود شركـات إنتاجية كبيرة تـكـون عـلى شكل شركاتٍ مساهمة، وهو ما لا يوجد في سوريا بسبب حرص النظام -في ما مضى- على عدم إقامة مشاريع اقتصاديةٍ ضخمةٍ تساهم في النموّ الاقتصاديّ من ناحية، ومن ناحيةٍ أخرى عدم رغبة نظام الأسـد الأب في رؤيـة تكتلاتٍ اقتصاديةٍ قد تكون -بشكلٍ أو بآخر- قاعدةً لتكوين تكتلاتٍ سياسيةٍ بعيدةٍ عن سيطرته. وحتى عندما أصبحت عند رجال النظام الـثروة اللازمة، فضّلوا الاستثمار في المشاريع الخدمية غير الإنتاجية، وبذلك لم تظهر أيّ شركة إنتاجيةٍ، سواء زراعية أم صناعية، جديرةٍ بإدراج أسهمها في البورصة، سوى شركة نماء الزراعية التي تعدّ من شركات القطاع المشترك المملوك ربعها للدولة.

وبهذا يتّضح أن الاقتصاد السوريّ لم يكن في حاجةٍ إلى سوقٍ للأوراق المالية، لعدم وجود شركاتٍ مساهمةٍ ترقى إلى أن تكون أسهمها محلّ ثقة المتداولين. ويتبيّن أن الهدف المرسوم لسوق الأوراق المالية لا ينضوي -بأيّ شكلٍ- تحت لواء مصلحة الاقتصاد السوريّ، **بل يكمن في نقطتين أساسيتين:** الأولى ظهور بعض الشركات العائلية التي شكلت ظاهرةً في تلك الفترة، والتي بدأ أصحابها بتداول الشأن العامّ -ولا سيما السياسيّ- وبدأت أصواتهم تعلو في نقد النظام، ولذلك كان لا بدّ من تفكيك تلك الشركات عن طريق تحويلها إلى شركاتٍ مساهمة؛ كمثالٍ على ذلك شركة «أديداس» لصاحبها السيد «رياض سيف»، لما وصل إليه من مكانةٍ سواء عند المواطنين السوريين أو عند عمال وموظفي شركته.

والنقطة الثانية -وهي أخطر- ترافق إحداث سوق الأوراق المالية مع الحديث علناً عن ضرورة تحويل بعض شركات القطاع العامّ إلى شركاتٍ مساهمةٍ وطرح أسهمها للبيع في سوق الأوراق الماليةٍ، وهذا نوعٌ من التخصيص وبيع شركات القطاع العامّ. وطبعاً كان المشتري جاهزاً، فمن يملك المال في تلك الفترة جهتان هما إيران، التي بدأت تدخل بقوّةٍ في الاقتصاد السوريّ، والجهة الأخـرى رجـالات النظام أنفسهم الذين تكوّنت عندهم المليارات من جرّاء نهب الاقتصاد.

لهذا.. ورثنا أبو بكر البغدادي

نبيل الملحم

أعرف سرّ «الكبوة» قبل أن أسقط.. أستحقها (أعرف ذلك)، ليس السقوط إلى هاوية التراب، لا.. إنه السقوط في هاوية التاريخ. ولم أكن أعرف أن موسى بن نصير باع طارق بن زياد، ثم بيع هو، وكلاهما فاتحان لأندلسٍ ليست لهما، فتاهَ الأول حتى ليس في وسع أحدٍ أن يقول:

- أعرف قبر طارق بن زياد، لأبلّل ترابه بالسؤال، لا بالدموع.. لن أبكي غازياً.

أعرف أن موسى بن نصير، وقد باع طارق بن زياد، انتهى متسوّلاً على عتبة الجامع الأموي.

- تلك حقيقة الوقت الهاوية.

أيّ وقتٍ هذا؟ أبطاله يقتلون أبطاله، ليقتات الموتى بالموتى، وبعدهما بمئات السنين نكون أحفاداً لأبطالٍ يتسوّلون اللقمة بعد أن نخرت سبايا الفتوحات فتوحاتهم؟

بشرٌ اقتتلنا على الغنائم، فبتنا الغنيمة.

نحن غنيمة الحرب، هكذا كنّا. وبين الغنيمة والغنمة حرفٌ واحدٌ هو، في الترتيب، آخر حروف لغتنا؟ ولا بدّ أن قروناً أطول من أن نقيسها بأجسادنا، هي زمننا الغارق في «اللازمن».. نحن الزمن التائه، الضائع، العابر، المتسوّل.

- نحن آلهة الكوميديا، وقد بتنا كوميديا الآلهة.

بشرٌ نتجوّل بين مطلبين: «المرتديلا» الفاسدة حيناً، والحوريات النزقات حيناً آخر.

ثم: نأكل الهواء في كلّ الأحيان.

هو ذا نحن، وكان علينا أن نُصدّق أننا في الهاوية. وإذا قيل غير ذلك فلا بأس أن نعود لنلعب باللغة، فالهاوية هوايتنا، حرفتنا، مصيرنا وقد رسمناه بالساطور ونحن نطلق ثغاءنا «الله أكبر».

نقول ثغاءنا، هو الحال كذلك، إذا ما اتفقنا أن روح الغنيمة تحيلنا إلى أغنام، وكنا كذلك.

- أيّ ربيعٍ ذاهبون إليه؟

يا لخيال الصحراء، ما الذي رسمه لنا!

تينٌ وزيتونٌ وأنهار عسل.. نساءٌ مضطجعاتٌ أردافهنّ تنام في مخادعنا.

ما بين وقتين تهنا.. خديعة المَخَادع، وزمنٌ آخر ما كان في وسع خيال الصحراء أن يقودنا إليه، أو يسكننا فيه، لنبيت في الوقت، ليكون الوقت مسكننا.

- نحن الساعات السائلة وقد رسمَنا سلفادور دالي دون أن يعنينا، لأننا لا نعني أحداً.

- أيّ سوريالية نحن؟

ها نحن (نتساكن) مع الزمن، هو الأمر كذلك. ما بيننا وبين الزمن ما بين قوافل بول البعير والثورة التقنية السادسة، قل السابعة، لا.. بل قل:

- متواليةٌ هندسيةٌ من انفجارات الاستكشاف التي لا تنتهي.. استكشافاتٌ ليس أولها النعجة «دولي»، وليس آخرها هذا الفضاء الأزرق وقد بتنا فيه مجرد كائناتٍ افتراضية، يرسمنا من لا نعرفه، ويأخذنا إلى حيث لا ندري.

لا ربيع عندنا، وقد لا يأتينا ربيعٌ أبداً. فبعد ستّ سنواتٍ من الهتاف، من التيه، من البنادق وألعاب الأحزمة الناسفة، بتنا منقسمين إلى: سكّان سجون، سكّان مقابر، غارقين في بحار التهجير القسريّ و(أحياناً) الطوعيّ، متسوّلي سفارات، ولاعبين يبيعوننا للمؤتمرات لنكون على هاوية المائدة.

- من يقول لأولئك الذين يصرخون:

- باسم الله والشعب، إنك لا تُمثلنا؟ من يقول لهم:

- إنك تبيعنا؟

ما بين زمنين نحن.. زمن المرتديلا الفاسدة، وزمن المرتديلا الفاسدة، بعد أن سقط زمن الحوريات في وحل خيالنا.

ما بين فسادين، ومن أجل جلالة الأول نُقتَلْ، ومن أجل جلالة الثاني نُقتَلْ، وها نحن نقتتل من أجل أن ترث السفالة السفالة.

كان هذا بعد ١٤٠٠ سنة من خدعة «الوحي»، وقد قال لنا: اقرأ.

زمنٌ باهتٌ يقوده رجالٌ باهتون. ولا بد أن نسأل لنقرأ:

- إلى أيّ درجةٍ نحن كائناتٌ اصطلاحية، دولٌ اصطلاحية، قومياتٌ اصطلاحية، إثنياتٌ اصطلاحية، ومذاهب لا تذهب سوى إلى حيث تأكل نفسها؟

لهذا كان على أبي بكر البغدادي أن يعدنا أنه وريث الله بيننا.

نساءٌ في الهوّة الفاغرة بين الحبّ والموت

قراءةٌ في رواية «ألف شمسٍ ساطعة» لخالد الحسيني

انجيل الشاعر

كيف اتفق أن ما جرى في أفغانستان يجري مثله في سوريا وغيرها: «البشتون كانوا يهاجمون بيوت الهازارا، يقتحمونها، ويقتلون عائلاتٍ بأكملها، والهازارا ينتقمون باختطاف المدنيين من البشتون واغتصاب نسائهم وقصف أحيائهم والقتل دونما تمييز. كلّ يوم تكتشف جثثٌ مقيّدةٌ إلى الأشجار، بعضها تكونّ محروقةً فلا يمكن التعرف عليها، غالباً ما يكون الرصاص قد أطلق على الرؤوس، والعيون مفقوءة والألسن مقطوعة...» (ص ١٨٤). لا يمكن إلا أن تفرض المقارنة نفسها على القارئة السورية والقارئ السوريّ لدى قراءة هذه الرواية. لماذا حدث ما حدث هناك، ولماذا يحدث هنا أو في غير مكان؟ لا تطرح الرواية السؤال، ولكنها توحي به إيحاءً، بل تفرضه بداهةً.

«منذ سيطرة المجاهدين في نيسان ١٩٩٢ تغير اسم أفغانستان إلى الولاية الإسلامية الأفغانية. المحكمة العليا بقيادة رباني امتلأت بالملالي المتشددين.. أُمرت النساء بالتحجب، وحُرّم عليهنّ السفر بدون محرم، وتهمة الزنا تعاقب بالرجم..» (ص ٢٦٥، بتصرف). فقد نظر الحسيني إلى الحروب الأفغانية من زاويةٍ إنسانية، محورها ما عانته النساء الأفغانيات قبل هذه الحروب وأثناءها. بل يمكن القول إن الرواية تعبّر تعبيراً عميقاً عن نظرة النساء إلى المجتمع والدين والحرب، في ضوء نظرة المجتمع والدين إلى المرأة وأثر الحرب في حياتها، كأنّ الحروب كلها تدور على أجساد النساء. كلّ ما كان يريده المجتمع الأفغانيّ وكلّ ما تريده العقائد الدينية هو انضباط الجسد الأنثويّ انضباطاً تاماً، وفق مشيئة الذكور.

«مريم» و«ليلى» و«عزيزة»، ثلاثة أجيالٍ من نساءٍ باكياتٍ ومبكيات، مقهورات، مغبونات، اضطهدنَ من قبل الحرب والرجل والدين والمجتمع، أولئك هنّ نساء «ألف شمس ساطعة».

هكذا أنهى خالد الحسيني روايته، بولادةٍ جديدةٍ بعد أربعة عقودٍ ونيّف من المخاض العسير لبطلاتها وأبطالها، في أرضٍ شهدت من ويلات الحرب الجسيمة التي مرّتّ بها أفغانستان، بدءاً من الغزو السوفييتي، فتناحر الجهاديين في ما بينهم، ثم حكم «الطالبان» الظلاميّ والمظلم مروراً بأحداث سبتمبر، حتى عام ٢٠٠٩.

ثلاثة أجيالٍ متعاقبةٌ من الشعب الأفغانيّ يعرضها لنا الكاتب ببناءٍ شاسعٍ متمثلٍ في مجتمعٍ بأسره خلال حقبةٍ تاريخيةٍ معيّنة، بآلامه وآماله، بالتمايز الطبقيّ، والانقسام الطائفيّ، والتطرّف الإسلاميّ المتمثل في «الطالبان» والحروب الطاحنة، وأولاً وأخيراً التمييز ضد المرأة وتضحياتها المستمرّة من أجل البقاء. كتب الحسيني روايته باللغة الإنكليزية، ليعرض للعالم الغربيّ معالم حضارةٍ شرقيةٍ مدفونةٍ يجهلها الغرب أو يتجاهلها. إنّ «هِـرات، المدينة التي ولدتِ فيها عام ١٩٥٨، كانت ذات يوم مهد الثقافة الفارسية، وموطن الكتاب والرسامين، والمتصوفة» (ص ١٠). لكن أمراء الحروب والجهاد لم يتركوا من تلك الحضارة شيئاً.

بطلتا الرواية «مريم» و«ليلى» من مكانين وجيلين مختلفين، جمعتهما قسوة المجتمع ولاإنسانية الشريعة وظروف الحرب والشتات تحت سقفٍ واحد، زوجتين لرجلٍ واحد، تعانيان صنوف القهر والاضطهاد، في منزلٍ جعلت منه الحرب وقيود الشريعة سجناً لا يطاق. فقد حرّم الطالبان عمل النساء وتعليمهنّ وفرضوا عليهنّ التزام البيوت، فلا يغادرنها إلا منقباتٍ ومخفوراتٍ بأبٍ أو أخٍ أو زوجٍ أو غيرهم من المحارم.

«مريم» «الحرامي»، أي ابنة الزنا، ثمرة نزوةٍ غريزيةٍ لرجلٍ واسع الغنى والشهرة وامرأةٍ واسعةٍ الفقر، من حضيض المجتمع. ابنة خادمةٍ أذعنت لنزوة سيدها، وحملت منه، فنبذها وحمْلَها إلى كوخٍ، في مكانٍ قصيٍّ خارج المدينة، هرات. تواطأت عليها تقاليد المجتمع، كما تواطأت على أمها التي طالما كانت تتمنّى لنفسها أن تكون امرأةً كغيرها من النساء اللاتي يعترف المجتمع بأهليتهنّ زوجةً شرعيةً وأماً شرعيةً لأولادٍ شرعيين. ما كابدته الأمّ تسلل إلى ابنتها أضعافاً مضاعفةً من الذلّ والمهانة على يد رجلين، أحدهما أبوها المتخاذل، «جليل»، والثاني زوجها المتوحش «رشيد»، الذي زُوِّجت منه قسراً، بعد انتحار أمها.

مريم ضحية تواطؤ التقاليد والشريعة، أما ليلى فضحية الحرب. «ليلى» ابنة «حكيم»، معلم المدرسة المتقاعد والمثقف، الذي عمل جاهداً على تعليم ابنته. لكن الحرب لم تمهله، واجتثته وزوجته بانفجارٍ عنيف. فكان قدر «ليلى»، التي تمثل الجيل الثاني المتعلم نسبياً والأقلّ جهلاً من جيل «مريم»، أن ينقذها جارهم «رشيد» من تحت الأنقاض، ويتزوّجها بعد أن تشفى من جروحها، وهي لا تزال طفلة، يكبرها بخمسين عاماً.

في البداية أحسن «رشيد» معاملة «ليلى» حتى حملت، ولكن سرعان ما تغيّرت معاملته بعد أن وضعت مولودتها «عزيزة». البنت في نظر «رشيد» وأمثاله في المجتمعات المتخلفة وباءٌ قاتل، تماماً كما كان يفعل بـ«مريم» بعد إجهاض حملها الأول والأخير. التاريخ يتكرّر، والمرأة تحمل وزر النوع البشريّ في تجسيد المجتمع الذكوريّ بإنجاب «الصبيان»، ومن لا تنجب صبياً لا تصلح أن تكون زوجة. مصائر معظم النساء متشابهة، سواء بسبب التقاليد أم بسبب الشريعة أم بسبب الحرب أم بسبب القحط.

بعد سنواتٍ عجافٍ أنجبت «ليلى» لـ«رشيد» صبياً أسماه «زلماي»، فنال من الدلال والحبّ ما لم تنله أخته «عزيزة» التي أودعت دار الأيتام بسبب القحط الذي مُنيت به أفغانستان، فصار الجوع والعطش والحرب هي القاسم المشترك بين الأفغان على اختلاف أطيافهم.

ولكن، على الرغم من المصائر الفاجعة والمعاناة المريرة، ثمة ما يبعث على الأمل، ويدعو إلى التحمّل، إنه الحبّ الذي جعله الحسيني نافذةً مفتوحةً على المستقبل، والذي ساعد «ليلى» على التحمّل ومواجهة مصاعب الحياة، جعل «مريم» تغدق ما تختزنه روحها من الحبّ على ضرّتها «ليلى» وابنتها «عزيزة»، ثمرة الحبّ. ذاكرة «ليلى» مفعمةٌ بحبّ «طارق» صديق طفولتها وحبيب ريعانها وأبو طفلتها «عزيزة» التي كانت ثمرة لحظةٍ متوهجةٍ بالحياة مشعة بالأمل، لحظة وداع «طارق» لـ«ليلى»، قبل سفره بساعات. فقد أجبرها حملها وموت والديها على القبول بـ«رشيد» زوجاً بعد أن دبّر لها الأخير من يخبرها بالموت المزعوم لـ«طارق». منحت صداقة الزوجتين الصادقة، بعد خلافاتٍ كبيرةٍ وفترةٍ لا يستهان بها من الزمن، المرأتين قوّةً استثنائيةً جعلت الحسيني يخرج بالحدث إلى مكانٍ آخر لا وجود فيه للظلم والعبودية، من خلال هروب الزوجتين من «كابل». لكنه عاد بهما مسرعاً إلى مسرح الأحداث. قبض عليهما «الطالبان» وأعادوهما إلى «رشيد» الذي استأسد في الانتقام منهما، وكاد أن يقتل «ليلى» خنقاً، فأنقذتها «مريم» من بين يديه بقتله، فدفعت حريتها ثم حياتها دفاعاً عن «ليلى» وعن ابنتها «عزيزة».

اعترفت «مريم» بأنها قتلت «رشيداً» دفاعاً عن «ليلى» وعن نفسها، وليس لديها من يشهد على ذلك سوى «ليلى». لكن الشريعة، التي لا تقبل إلا بشهادة رجلين أو رجلٍ وامرأتين، حكمت على «مريم» بالموت. قال «الطالبان»: «إني أتعجب. لقد خلقنا الله مختلفين، أنتنّ معشر النساء ونحن معشر الرجال. عقولنا مختلفة. أنتنّ غير قادراتٍ على التفكير مثلنا. لقد أثبت الأطباء الغربيون بعلمهم هذا الأمر. لهذا لا نقبل الشهادة إلاّ بامرأتين، بينما يكفي رجلٌ واحد» (ص ٤٧٢). وقبل النطق بالحكم قال الطالبان المسنّ، وكان مريضاً إلى حدّ الموت: «يراودني إحساسٌ بأنكِ لست امرأةً شريرةً يا «همشيرة». لكنك ارتكبت فعلاً شريراً. ويجب أن تدفعي ثمن فعلتك. الشريعة ليست ملتبسةً في هذا الأمر. تقول يجب أن أرسلك إلى حيث سألحق بك سريعاً. وليغفر لك الله». أُعدمت «مريم» أمام حشدٍ كبيرٍ من النساء والرجال.

تعيش النساء في الهوّة الفاغرة بين الحبّ والموت، والرجال والغون في الدم. الحرب هي الهوّة الفاغرة بين الحبّ والموت، حرب التقاليد على النساء، وحرب الشريعة على النساء، وحرب الرجال على النساء، فهل من مخرجٍ سوى الحبّ؟

الشاعر بشير العاني

حوذيّ الجهات.. يمتطي الغياب إلى جهة النهر!

إعداد: فريق صور

محمد بشير العاني، عضو جمعية الشعر في اتحاد الكتاب العرب في سوريا، وهو من أبرز شعراء محافظة دير الزور.

ولد في العام ١٩٦٠. حاصلٌ على شهادة بكالوريوس في الهندسة الزراعية. وله ثلاثة دواوين شعرية؛ أوّلها «رماد السيرة» ١٩٩٣، ثم «وردة الفيحة» (دار علاء الدين، دمشق) ١٩٩٤، و«حوذيّ الجهات» (دار المجد) ١٩٩٤. يعدّ العاني من الأدباء المعارضين للنظام، وهو أحد كتّاب موقع «ألف» المعارض.

بتاريخ ٩ آذار ٢٠١٦ أعلن «داعش» عن إعدام الشاعر وابنه إياس، الذي لم يبلغ العشرين عاماً بعد، بتهمة «الردّة»، بعد أن اقتيد الاثنان إلى «الأسر» مطلع هذا العام وبقيا أسيرين قرابة ستة أشهرٍ لدى تنظيم الدولة الإسلامية «داعش»، حتى إعلان الأخير خبر إعدامهما مع رفض تسليم الجثتين لذويهما، كما رفض أن يدلي بأيّ معلوماتٍ عن مكان دفنهما، ومنع أهلهما من إقامة العزاء أو أيٍّ من مظاهره.

في بداية الثورة كان بشير العاني يقطن في جديدة عرطوز قرب العاصمة دمشق، حتى ضيّقت أجهزة الأمن الخناق عليه، وعلى كلّ معارضٍ للنظام الذي أوغل في دماء الشعب السوريّ، فاضطرّ الشاعر إلى الاختفاء مدّةً ثم الهروب إلى مسقط رأسه في دير الزور بعد وفاة زوجته بمرضٍ عضالٍ وسوء الحال في دمشق.

من آخر قصائد الشاعر:

نطأطئ الرؤوسَ.. ونمضي..
لا ندري أين نُسقِطُ آخر الدّمع
وأين تدمعُ فينا عناقيدُ الختام..
نخالُ الحرابَ نجوماً.. نقول «هنا يستريح الغريب»..
فلا نستدلُّ إلا على جثث الرفاق
نقول هنا.. بعد طعنةٍ في الظهر..
أو طعنتين..
هنا.. بعد أن نمشي وراء جنازة هذي الأرض أو تلك..
هذا الشعب أو ذاك..
هنا يستريح الغريب
هنا.. بعد أن تكلّ عصا الطاغية.

فيلم حلم الفراشة Kelebeğin Rüyası ليلماز إردوغان (عن الشعراء المغمورين المنسيّين)

عمار عكاش

كم من الشعراء تحدّثوا عن مغامراتهم في الحياة وكانوا مدلّلين لدى شعوبهم، لكن تحت ظلال هؤلاء المدلّلين آخرين سقطوا في نواصي الحياة المعتمة، خاصّةً أولئك الذين لم يفصلوا بين قصائدهم وبين يوميّاتهم، فلم يعرفوا إن كانوا هم من يلدون قصائدهم أم أنها تلدهم. فيلم حلم الفراشة، للمخرج التركيّ يلماز إردوغان، يتحدث عن هؤلاء الشعراء الذين يتركون وراءهم أثر الفراشة، ومثل كلّ الأشياء الجميلة يرحلون قبل الأوان.

تجري الأحداث في أربعينات القرن الماضي، زمن الحرب العالمية الثانية، في مدينة زونغولداك غربيّ البحر الأسود؛ في بيئة اجتماعية يلفّها القهر والمظالم، فيُرْغَم كلّ ذكور البلدة على العمل في مناجم الفحم، ويقع الكثيرون منهم فريسةً للسلّ.

يسرد الفيلم حكاية شاعرين شابّيْن فقيريْن شغوفَيْن بالشعر تجمعها صداقةٌ متينة (روشتو أونور وموزافّار تايّب)، يحلمان بأن تنشر أعمالهما في إحدى المجلات الأدبيّة الشهيرة، ويُعجَبان كلاهما بفتاة غنيةٍ قادمةٍ من اسطنبول (سوزان) مع والدها الأرستقراطيّ المتعجرف. لا تلبث سوزان، التي تهوى الرياضة، أن تنجذب إلى عالمهما الشعريّ، وتتّفق معهما على المشاركة في مسرحيّةٍ من فصلٍ واحدٍ اسمها "الحب في زمن العمل الإجباريّ"، لكن والدها يمنعها. يتّفق الشابان أن يكتب كلٌّ منهما قصيدةً لسوزان كي تقرّر أيّها أجمل، غير أن إصابة روشتو بالسلّ تحبط المشروع، فيرحل إلى المصحّة الوحيدة في تركيا لعلاج السلّ في إحدى جزر اسطنبول، وتبقى القصيدة وعداً معلّقاً.

في المصحّ يقع روشتو في غرام فتاةٍ اسمها مديحة. ولا يلبث موزافّار أن يوافيه هو الآخر، بعد أن نجح في إقناع مدير المصحّ بقبوله من خلال قصيدةٍ قرأها له. يغادر روشتو المصحّ، قبل تعافيه، ليتزوّج حبيبته مديحة، غير أنها لا تلبث أن تقضي نحبها فيبدأ المرض بالاستيلاء على روشتو. ينتهي الفيلم برحيل الشاعرين.

الفيلم، في مجمله، قصيدةٌ فريدةٌ ذات طابعٍ غنائيٍّ تعيدنا إلى زمن كلاسيكيّات السينما الجميلة. ونجح المخرج يلماز إردوغان، الذي عرف بأعماله الاجتماعية ذات المسحة الكوميدية، مثل فيلمَي Vizonetele و Neşeli Hayat، في منح حيويّةٍ وجوٍّ بهيجٍ للفيلم وسط البؤس. الصورة البصريّة خلابة، تغلب عليها اللقطات الواسعة والعلويّة ولقطات الماستر، من خلالها يؤسّس إردوغان للتباين بين جغرافيا المكان الجميلة وحبّ الشاعرين للحياة وبين الظلم والقهر. اللقطة الافتتاحية من أفضل ما شاهدتُ في السينما التركية، كئيبةٌ قاتمة اللون، تواكبها موسيقى راهمان؛ وجه عاملٍ مجهدٍ يتهادى مع وجه حصانٍ عيونه ترمش، ثم تدور الكاميرا وترتفع بين العسكر والعمال المقهورين مع خلفيّةٍ من البلدة؛ تأسيسٌ متميزٌ لخلفيّة الفيلم التاريخيّة والاجتماعيّة قبل أن يظهر الشاعران المقبلان على الحياة بشغف.

رغم نجاح العمل بمجمله لكن حدث شيءٌ من الخلل في تطوّر الشخصيات، مع مغالاةٍ في مَثْلنة علاقة الصداقة بين الشاعرين. كلّ الحوارات غنيّةٌ شيّقةٌ رشيقة، ومن حين إلى حين تومض علينا ومضةٌ شعريةٌ قصيرةٌ مع مشهدٍ جماليٍّ مختلفٍ يولّد في موسيقى راهمان آلتن الذي يذكّرنا، بملامسته روح العمل والحبكة، بعبقريّة الموسيقي الإيطاليّ إنريكو موريكونه.

كانت ميزانية الفيلم أضخم ميزانيّةٍ في تاريخ السينما التركية، وبلغت ١٠ مليون دولار، لكنها حققت هدف المخرج في سرد حكاية شاعرين كانا منسيَّين وظلا منسيَّين حتى أعاد سرد حكايتهما. فبعد إطلاق الفيلم جمعت ثلاث دور نشرٍ أعمال الشاعرين القليلة في كتابٍ حقق أعلى نسبة مبيعاتٍ في الأسواق التركية.. وبمفارقةٍ عجيبةٍ غمرَ أثرُ الشاعرين (أثر الفراشة) تركيا بعد ما يقارب ستين عاماً على رحيلهما..

واقع الشفافيّة في المؤسّسات السّورية
بحثٌ استطلاعيٌّ تناول بالدراسة ٢٨٠ مؤسّسة سّورية

واقع الشفافية في المؤسّسات السورية كان محور فعاليات «مؤتمر الشفافية الأوّل» الذي انطلق يوم السبت ٢٠١٦/٣/١٩، في مدينة غازي عنتاب التركية، والذي شارك فيه ٢٥ ممثلاً وممثلةً عن منظمات المجتمع المدنيّ السورية ومؤسّساتٍ حكوميةٍ وتياراتٍ سياسيةٍ وشبكاتٍ مدنيةٍ ومجتمعيةٍ، وبحضورٍ بارزٍ للجهات الإعلامية.

وفي نهاية المؤتمر خرج المشاركون بمجموعةٍ من أوراق العمل والتوصيات التي، في حال طبّقتها المؤسّسات السورية من خلال التعاون وتنسيق الجهود، سيكون لها الأثر الأكبر في تعزيز المساءلة المجتمعية وبالتالي مراعاة حقوق السوريين وإنصافهم في تقديم الخدمات، الأمر الذي يُحدث نقلةً على طريق تحقيق الديمقراطية والسلام.

وفي المؤتمر نوقش بحث "واقع الشفافية في المؤسّسات السورية"، الذي يعدّ أحد الأبحاث الهادفة إلى رصد واقع الشفافية في هذه المؤسّسات، وتكوين صورةٍ عن مواطن القوّة والضعف، والخروج بتوصياتٍ ومقترحاتٍ من شأنها رفع مستوى الشفافية في المؤسّسات السورية الناشئة بعد حركة الاحتجاجات في آذار ٢٠١١.

يصنّف هذا البحث ضمن الأبحاث الاستطلاعية. وتناول بالدراسة ٢٨٠ مؤسّسةً سوريةً ناشئةً تعمل في مجالات عملٍ متنوّعةٍ وفي مناطق عملٍ مختلفة، موزّعةٍ بين داخل سورية بنسبة ٧٧٪، وخارجها بنسبة ٢٣٪. استخدم البحث الاستمارة المقنّنة كأداةٍ رئيسيةٍ للوصول إلى أهدافه. وتناول بالدراسة ثلاثة محاور رئيسيةٍ تسهم في فهم واقع شفافية المؤسّسات الناشئة:

- محورٌ يقيس توافر الهياكل المؤسّسية الضامنة للشفافية داخل المؤسّسة. والهياكل التي قام البحث بدراستها هي: (هيكلٌ تنظيميّ، نظامٌ داخليّ، مجلس إدارة، خطّة عمل، تقييمٌ للأنشطة والأعمال، توثيق نشاطات، توثيق مصروفات، تقارير ماليةٌ للأنشطة، تقارير ماليةٌ للمؤسّسة ككلّ).
- محورٌ متعلقٌ بالعلاقة بين المؤسّسة والمستفيدين.
- محورٌ متعلقٌ بالعلاقة بين المؤسّسة وبين المؤسّسات الأخرى.

جديرٌ بالذكر أن البحث أُنجز بالتعاون بين مركز المجتمع المدنيّ والديمقراطية ومنظمة هيفوس الهولندية.

بحثٌ ميدانيٌّ يكشف نسبة النساء في المنظّمات السّوريّة

في مبادرةٍ هي الأولى من نوعها بين المنظّمات السورية، أجرت شبكة «أنا هي»، بالتعاون مع ملتقى «حنين»، بحثاً ميدانياً يعمل على رصد واقع عمل المرأة السورية في منظّمات المجتمع المدنيّ السورية الموجودة في مدينة غازي عنتاب التركية.

ويعدّ بحث «تضمين النساء في منظمات المجتمع المدنيّ السورية» أحد الأبحاث الميدانية التي تهدف إلى معرفة نسبة مشاركة النساء ودورهنّ في منظمات المجتمع المدنيّ، ومدى حرص هذه المنظمات على مشاركة المرأة، وتقييم وتحديد المعوّقات التي تواجه عملها في هذه المنظمات. تحدّث المشرف على البحث لمجلة صوَر عن الصعوبات التي واجهتهم أثناء إجرائه، والتي تمثلت في رفض أغلب المنظمات الإدلاء بمعلوماتٍ لأشخاصٍ لا يثقون بهم، ورفض ملء الاستبيان بعد معرفة مضمونه، وعدم الإجابة بشفافيةٍ من قبل بعض المنظمات.

كما تحدّث عن المنهجية الذي تمّت بشكلٍ استكشافيٍّ، وبطريقة المقابلات الشخصية، لمعرفة عدد النساء العاملات، وآلية انتقاء العاملين، والتحديات والصعوبات، وأسباب إقصاء المرأة عن العمل، ومدى تطبيق مفهوم الجندرة لدى منظمات المجتمع المدنيّ.
استهدف البحث (١٠٠) منظمةٍ تعمل بشكلٍ رئيسيٍّ في مدينة غازي عنتاب، واستُبعدت المنظمات النسائية من العيّنة المستهدفة.

توصّل البحث، بعد الدراسة وتحليل الاستبيان، إلى أن عدد السوريات العاملات لدى المنظّمات المستهدفة بلغ (٢٨٦٣) امرأةً من إجمالي عدد العاملين (٩٣١٠) عاملاً، مما يعني أن نسبة النساء العاملات (٢٠٪) تقريباً.

تطرّق البحث إلى الصعوبات التي ذكرتها العيّنة المستهدفة من المنظمات، وهي: قلة الخبرة، وصعوبة إيجاد المرأة المناسبة، وقلة التمويل، وطبيعة العمل لساعاتٍ طويلة، وآلية التوظيف القائمة على المحسوبيات بشكلٍ ملحوظ، واختيار الأشخاص حسب طبيعة الاتجاه الفكريّ للإدارة، وعدم ضمان استمراريةٍ المرأة في العمل بسبب غياب الأنظمة التي تأخذ في الاعتبار وضع المرأة (مثل إجازة الأمومة والرضاعة وتوفير الحضانة في مكان العمل)، وقلة خبرة بعض النساء في برامج الكمبيوتر، وعدم التفرّغ التامّ للعمل، وصعوبة الحصول على إذن التوظيف لفقدان الوثائق الشخصية، وصعوبة السفر والتنقل بسبب القصف، وانتشار الفصائل المتشدّدة التي تقف حائلاً أمام عمل المرأة في الداخل السوريّ.

ذكر البحث، في التوصيات التي خرج بها بهدف تعزيز الوصول إلى تكافؤ الفرص لكلا الجنسين، وخلق فرص عملٍ للنساء: إعداد دوراتٍ تدريبٍ مهنيةٍ ترتبط مباشرةً بفرص العمل المتوافرة، وتأمين بيئة عملٍ مرنة، ومنع جميع مظاهر العنف (اللفظيّ أو السلوكيّ)، وتشكيل لجانٍ نسائيةٍ لدعم برامج المرأة. وأكد البحث على ضرورة إشراك المرأة في صنع القرار للحصول على الدعم المطلوب، وعلى أن لا تقلّ نسبة النساء عن ٥٠٪، لتطبيق قرار مجلس الأمن (١٣٢٥) لعام ٢٠٠٠.

أنا آسف أستاذ

ملاذ الزعبي

الحرمان من دروس التربية العسكرية، الذي عانينا منه في مدارس الأونروا بالمرحلة الإعدادية، لم يكن يعني أن الأجواء العسكرية وشبه العسكرية كانت غائبةً عن المدرسة. فأولاً كانت هناك بدلات الفتوّة الجميلة الملزمون بارتدائها، وثانياً، وهو الأهم، كان هناك أستاذٌ لمادة الإحساس المرهف والشاعرية -الرسم- يملك ذراعين كمدقّي هاون تنتهيان بيدين كمخباطين، وكان هذا الأستاذ -والله أعلم- قد عاهد نفسه ألا يجعلنا نكابد أيّ مشاعر فقدٍ نتيجة غياب حصص التربية العسكرية عن برنامج دروسنا الأسبوعية.

كان أستاذنا حليق الذقن دائماً رغم أنه، أو لأنه، سبق أن قضى بعضاً من سنيّ عمره سجيناً بتهمة الارتباط بحركة الإخوان المسلمين. وكان أستاذنا حصان (حصان هي كنيته. وكان لقبه بين التلامذة الهورس، وهي Horse الإنجليزية مضافاً إليها ألف ولام التعريف)، خلال الفسحة بين درسين، يقف على شرفة الطابق الثاني لبناء المدرسة، والمطلّة على ساحتها، ليراقب الطلاب المخالفين. وكان من جملة المخالفات التي تستوجب عقوبةً شديدةً: الركض في الساحة. إذ لا يعقل أن يقوم أطفالٌ بين الثانية عشرة والرابعة عشرة من العمر باللعب والركض في الساحة.

المهم، كانت الفرصة دائماً ما تنتهي وهناك طابورٌ من التلامذة المنتظرين لعقوبة الأستاذ حصان. وتبدأ العقوبة، التي تأخذ شكل محكمة عسكريةٍ يلعب فيها أستاذ الرسم دور القاضي والشاهد والجلّاد في آنٍ معاً، باستفسارٍ من الأستاذ للطالب المجرم حول الكيفية التي خوّلت بها نفسه له مخالفة القانون، وبمجرّد أن يبدأ الطالب بالتبرير تنهال عليه مجموعةٌ من الخبطات واللبطات من المخباطين المذكورين أعلاه. وكان من المعتاد أن ينتهي تنفيذ الحكم بجملةٍ أشبه بلازمةٍ تخرج كزفرةٍ من صدر أستاذنا حصان: «بدّو يبرّر بدل ما يقول آنا آسف أستاذ.. والله لو اعتذر لسامحته».

في يوم ربيعيٍّ مشمس، في الفترة التي تفصل بين السابع من نيسان؛ ميلاد الحزب العملاق، والسابع عشر من نيسان؛ ذكرى جلاء المستعمر الغاشم؛ قمتُ ذات مرّةٍ بممارسة عادة الركض الإمبريالية في ساحة المدرسة، لينتهي بي المطاف واقفاً بين طابور المجرمين في نهاية الفسحة.

وبما أنني، خلال المرحلة الإعدادية، كنت ما أزال أحتفظ ببعض الذكاء من المتبقي من المرحلة الابتدائية؛ قرّرتُ أن أبادر وألقي الكرة في ملعب الأستاذ حصان. فبمجرّد أن بدأت جلستي ووجّه لي استفساره عن الكيفية التي خوّلت بها نفسي لي ارتكاب المحظور باغتُّه بصوتٍ طفوليٍّ واعتذارٍ لطالما تمنّاه من الطلاب «آنا آسف أستاذ»، فباغتني بخبطاتٍ ولبطاتٍ فاقت كمّاً ونوعاً عقوبة باقي المذنبين، ثم ختم بزفرته المعتادة مع تغييرٍ طفيفٍ في النص: «قال بقول أنا آسف أستاذ»!

#منقدر

حملة «منقدر» حملة إعلامية تفاعلية سورية تطلقها شبكة أمان.

حملة «منقدر» هي مساحة للأفراد والمنظمات السورية للتعبير عما يتمنون وما سيقومون بعمله من أجل بناء سوريا.

«منقدر» حملة من أجل التركيز على الطاقة المنتجة الإيجابية وقيم التعايش السلمي وقبول الآخر التي هي جزء من قيم المجتمع السوري.

انضم إلى حملة «منقدر» الإعلامية بمشاركتنا: «شو بتقدر تعمل منشان سوريا؟» بمفردك أو مع مجموعتك، وشاركنا الجواب بأحد الطرق التالية على إيميل الشبكة:

Amannet.peace@gmail.com

١- إرسال الجواب على الإيميل أو على صفحة الفيسبوك.

٢- صورة فوتوغرافية تحمل الإجابة.

٣- مقطع فيديو صغير تصور فيه نفسك وجوابك على السؤال.

انضم إلى حملة «منقدر» التفاعلية من خلال تواصلك عبر الإيميل أو على صفحة الفيسبوك لتتعرف على النشاطات المقامة ضمن حملة «منقدر» في منطقتك.

شبكة أمان هي شبكة سورية من شخصيات ومنظمات فاعلة ومؤثرة ممن يعملون لبناء السلم المحلي والوطني في سوريا، ويعملون بقيم: السلم، والحرية، والإنسانية، والمصداقية، والشفافية، وقبول الآخر والعدالة، وتقوم الشبكة بحل النزاعات وتجنبها وإدارتها.

تساهم شبكة أمان في بناء السلم الوطني في سوريا من خلال تعزيز السلم المحلي في مناطق مختلفة من سوريا.

https://www.facebook.com/aman.network.peace

#المعتقلون_أولا

#detainees_first